يـافـا

يـــافـــا

روايـــة

ســـارة أبـــو ريـــا

يـــــافـــا

روايـــــة

اسم الكاتبة: سـارة أبـوريـا

تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية

تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى

رقم الإيداع: ١٦٥٨٤ / ٢٠١٨

طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

(١)

تهب الرياح العتية من كل جانب، نبات الصبّار يهتز معها محاولاً أن يقاومها بينما أرى نفسى طفلة في الثامنة من العمر، وضفائري تتوّج بأشعة الشمس. أقف على أرض خالية من البشر بينما تقف أمي على مسافة ليست بالقريبة مني، وتنظر أمامها كأنها تنتظر شخصاً ما. فجأة، أسمع صوت الخيول تأتي من خلفي، فألتفت ور ائي لأجد عدداً لا حصر له من أرجل الخيول المسرعة، فأصرخ لأستغيث بأمي التي لا تزال تقف في مكانها لا تدرك ما الذي يحدث لي.

أستيقظ من كابوسي الذي اعتدت عليه منذ صغري، لأجد نفسي في صالة منزلي التي تعمها الفوضى. أمسح بيدي وجهي الذي يملؤه العرق ثم أنهض لأستحم بعدها أتناول الفطور، و أفتح الفيس بوك، ولكني لا أجد شيئا جديراً لأهتم به. أشرب القهوة

بسرعة ثم أخرج لأبدأ يومي في زحمة شوارع القاهرة التي لا تنتهي منذ بزوغ الفجر إلى ما بعد منتصف الليل. أدخل مكتب المحاماة الذي أعمل به لأجد رئيسي الأرعن يوبخني بسبب تأخيري المستمر كما يكلفني بقضية جديدة على الرغم من كثرة الملفات الموجودة على مكتبي. يقترب مني حازم، ويقترح أن يعزمني في أحد المطاعم الفخمة في وسط البلد، ولكني أرفض دون أن أنظر إلى وجهه ذي الابتسامة الزائفة، ولكني أشعر بنظرات ليلى الثاقبة نحوي.

أتطلع إلى القضية الجديدة في وجوم، محاولة أن أنتهي من قرائتها سريعاً، ولكن شيئاً ما يوقفني، ويزيح عني الوجوم المرتسم على وجهي ليحل محله الصدمة، تمر أمامي العديد من الصور من الماضي البعيد، وأسمع أصوات الخيول القادمة من بعيد، وأسرح بين طيات الورق لأتذكر يد أمي وهي مليئة بالأوراق الصفراء ذات الملمس الخشن والمكتوبة بالحبر الأسود، ما الذي يحدث لي؟ لا أعلم، ولكني أجد نفسي واقفة في مكان مظلم والأوراق تعلوه من

كل جانب، أحاول أن أخرج منه، ولكن دون جدوى، فالباب مُحكم الغلق، وأصوات الخيول تعلو كل مدى، أصرخ لأستغيث، ولكني أقع من شدة الألم لأرتطم بالأرض.

يأتي صالح من صحرائه البعيدة المنعزلة، بزيه العربي المزركش بالألوان المتناسقة ليشهر سيفه اللامع محاولاً تمزيق الجدران من حولي، ولكنه يفشل حيث إن الجدران سميكة خشنة، بعضها ملوث بالدماء والبعض الآخر عليه نقوش بلغة قديمة، لا أعرفها. يخرج من باطن الأرض جدار حجري يعزل بيني وبين صالح للأبد ثم يظهر رجل غريب الأطوار يعلن لنا بسط نفوذه على الأرض ومن فيها.

"وعد الأرض"، هكذا يردّد هذا الرجل الغريب هذه الجملة أكثر من مرة، وبأكثر من طريقة. مرة يغنّيها ويرقص عليها، ومرة أخرى يصرخ بها في وجهي كالمجنون. يدخل شاب وسيم صغير السن ويقف بجوار صالح. يهلع الرجل الغريب عندما يجدهما بجوار بعضهما

البعض ثم يتقدم نحوي ليخبرني هامساً بأنه آدم، وأن فرصته الذهبية قد حانت ليقضي عليهما في نفس الوقت. يقترب الرجل الغريب منهما في تمايل الأفعى ثم يخرج لسانه ليدفع سمه المميت إليهما، فيسقطان على الأرض بدون أن يصدر منهما أي صوت!

أحاول الخروج من هذا المكان الذي يشبه السجن، ولكن الأمل شبه مستحيل. أنهار لأقع على الأرض مستسلمة ثم أخبره بأن يقضي علي كما فعل بصالح وآدم، ولكنه يستمتع باستسلامي ويتراقص عليه وهو يشرب الخمر إلى أن يدخل أبي وبدون أي نقاش يقتله بسلاحه الميري، ليقع على الأرض جثة هامدة على الفور. تتلاشى صورة أبي في الهواء ثم تنهار الجدران من حولي لأخرج بسرعة تاركة الجثث الثلاثة ورائي.

أسير كالمجنونة في الشوارع والأمطار تتساقط بشدة على كورنيش النيل، أسمع صوت حادث اصطدام سيارتين، وأرى الناس تجري على مكان الحادث. أقف لأستكشف عن قرب ما الذي

يحدث، ولكن يقع بصري على هذه السيدة التي تجلس على الرصيف المقابل، وأمامها أكياس المناديل والأمطار تغرقها بينما هي تنظر أمامها كأنها تنتظر شخصاً ما. أقتربُ منها أكثر فأكثر، ولكنها لا تعيرني اهتماماً. أركع أمامها لأرى هذا الوجه ذا الملامح التي تشبهني إلى حد كبير ثم أرفع يدي أمامها لكي تلتفت إلي، فإذا بها تسألني عن سبب تأخري كل هذه الفترة، فقد انتظرتني كثيراً!

أستيقظ على دقات قلبي المتلاحقة، ولا أستطيع التنفس طبيعياً، فأفتح درج المكتب وأخرج منه دوائي. أنظر أمامي لأجد ساعة الحائط قد اقتربت على التاسعة، ألتفت إلى الشباك المفتوح لأجد أن الليل قد أسدل ستاره. يدخل حازم المكتب، ويخبرني بأنني قد نمت بعمق، ويسألني عن سبب إرهاقي بهذا الشكل، ولكني أطلب منه أن يحضر لي القهوة حتى أستطيع العودة إلى المنزل بينما تقف ليلى تراقبنا من بعيد في صمت.

أقف تحت الدوش أستقبل الماء الفاتر في استرخاء ليس له مثيل ثم أسمع أصوات أقدام تتقدم نحو الحمام ببطء شديد إلى أن تصل إلى الباب ثم تحاول فتحه. أخرج من تحت الماء بسرعة، وألف حولي المنشفة لأفتح الباب، ولكني لا أجد أحداً. أفتش المنزل بحرصٍ شديد، وفي يدي السكين ثم أحكم غلق باب الشقة، وبعد ذلك أذهب لأرتدي ملابسي وأستلقي على السرير وبجواري السكين، محاولةً إقناع نفسي بأن هذه أوهام بسبب الإرهاق الذي أمر به إلى أن تغفو عيناي.

أسمع صوت باب الشقة الذي يفتح ببطءٍ شديد، يعلو صوت خطوات أقدام تتقدم ناحية حجرتي. أعرف هذه الخطوات فليست بغريبة عني، أستدير لأجد (صالح) أمامي يبتسم ثم يأخذ يدي، لنخرج معاً. أسأله عن وجهتنا، فلا يرد إلى أن نقف أمام شاطئ الإسكندرية ننظر إلى شروق الشمس. أُغمض عيني بسبب حدة الأشعة العمودية ثم أفتحها لأجد نفسي وحيدةً على الشاطئ

العتيق. أقوم لأبحث عن صالح والإسكندرية، ولكني أجد (حازم) أمامي يخبرني بالتزام الهدوء حتى تنتهي العاصفة العاتية.

أمواج البحر ترتطم ببعضها لدرجة تجعلني أضحك كالأطفال و أنا جالسة على الشاطئ وبجواري حازم الذي ينظر بعيداً، ولا ينتبه إلى سعادتي. أقترب منه لأسأله عن سبب شروده، فيشير لي بيده على بعض الأشخاص الأغراب الذين يقفون على مسافة منا.

أذهب إليهم، فربما يحتاجون لمساعدة ما، ولكني أجدهم مدجّجين بالسلاح، والعديد من الشيوخ والأطفال يجلسون على الأرض أمامهم، وأيديهم فوق رؤوسهم بينما بعض السيدات والفتيات في حالة يرثى لها، والبعض الآخر مشقوق بطونهم وملقون على الأرض لا حول لهم ولا قوة. يُساق الشباب والرجال كالبعير ثم يقفون صفاً، فيقوم هؤلاء الأغراب برميهم بالرصاص ليسقطوا جثثاً على الفور. أصرخ وأحاول أن أجري نحوهم لكي أضربهم بكل ما في وسعي من قوة، ولكن ثمة حاجز لا مرئي يمنعني ثم يلكمني على

وجهي لأسقط على الأرض وأجد (حازم) واقفاً أمامي، وفي عينيه نظرة غدر.

أستيقظ على جرس الموبايل، لأجد (حازم) هو المتصل بحجة الاطمئنان على صحتي، فأخبره بأني بخير وأُنهي المكالمة على الفور. أنظر إلى سقف الحجرة لفترة قصيرة ثم أحاول أن أستجمع قوتي لأنهض من على السرير. أقوم بعمل فنجان من القهوة، وأسمع صوت أذان الفجر من الخارج. أجلس على السفرة التي تعمها الفوضى وأنظر إلى ملف القضية الجديدة ثم أقلب فنجان القهوة، وأنا أقُلب صفحاتها. أنظر في الفنجان لعلني أجد شيئاً ما يدلني على وجهتي في المستقبل، ولكني أجد بحراً تعلوه الطيور. أفتح الفيس بوك، لأستقبل أول رسالة من صديق لي يهنئني بعيد ميلادي الثلاثين. أضحك من الصدمة، فاليوم أتممت الثلاثين بدون أن أدري!

- "لن نقبل بحكم الإسلاميين".
- "سوف أعطي صوتي للفريق شفيق".
- "إنه من النظام الفاسد، نظام مبارك".
- "ولكني أنظر إلى معيار الكفاءة، وشفيق رجل المرحلة".

يتناول (صالح) فنجان القهوة بعصيبة، ويشربه مرة واحدة بينما أدخن سيجارتي بدون أن أنظر إليه. دائماً ما تتفجر بيننا المشاجرات بسبب السياسة، وفي النهاية يختفي (صالح) من الدنيا بدون سابق إنذار. يضع الجرسون القهوة أمامي في نفس المكان الذي اعتدت أن أجلس فيه مع (صالح) عندما كان موجوداً. أضحك عندما أتخيل رد فعله عندما يعلم التطورات السريعة التي مرت بها البلاد، لأهمس سراً: "أين أنت يا صالح؟".

أدخل المكتب، لأجد بوكيه ورد من الطراز الرفيع في انتظاري، وعليه كارت تفوح منه رائحة برفان حازم، فأذهب إليه لأجده

يتصنع الانشغال. أقترب منه لأسأله عن غرضه مني. ينظر إلي مصدوماً كأنه لم يكن يتوقع هذه الجرأة من امرأة بائسة مثلي، ويخبرني بأنه يريد أن يقيم علاقة معي بدون شروط وبدون قيود. أسأله عن السبب، فيعبرلي عن إعجابه بي منذ فترة كما أنا مستقلة بحياتي وبالتالي لن يهتم أحد بما أفعله، فأقاطعه بحدة وأخبره بأنني لا أقبل، والسبب: إنني لست بعاهرة كما إنني لا أشتاق إلى أنفاس تشاركني مخدعي!

أعود إلى مكتبي، والغضب لا يزال يسيل من عيني، ولكني ألمح نظرات ليلى نحوى من بعيد. أعلم بأنها تحبه، وهو لا يدري أو لا يريد أن يدري، فالرجل في مجتمعاتنا لا يحب الفتاة التي تفكر حتى لا ينكسر كبرياؤه. بعد لحظات من التردد، ذهبت إليها لأخبرها بوجوم أن عليها ألا تفكر في هذا التافه الذي يجري وراء نزواته، فهي تستحق من هو أفضل منه، ولكنها انهارت في البكاء لتخبرني بأنه فات الأوان بعد أن هجرها منذ أسبوع.

عدت إلى مكتبي، وأنا ألعن هذا الحقير، ولكني ألتمس له العذر، فهو واضح وصريح، ليس كمثل الآخرين الذين يصنعون المعجزات كي يظهروا أوجه مزيفة حتى تقع الفتاة فريسة لهم. بحكم عمل ليلى كسكرتيرة في المكتب، فهي تراه أكثر مما أراه. تمر أمامي الأيام الفائتة لأتذكر كم كانا يتحدثان، ويضحكان، ويتناولان الطعام معاً بينما كنت أجلس لوحدي لفترات طويلة. لقد كان ينظر إلي من حين لآخر، فهل كان يستغلها حتى يلفت انتباهي نحوه؟! يا لها من مأساة!

طلبت إجازة يومين من العمل حتى أستريح من زحام الحياة التي أعيشها، وقررت الذهاب إلى الأسكندرية لكي أستمتع بحياة يسودها النعيم. اشتعل رئيسي غضباً بسبب تأخير بعض القضايا المسئولة عنها، وأخذ يلومني على كسلي الدائم واستهتاري الغير مبرر ثم أشعل سيجارته بعصبية ليخبرني بأنه يسمح لي بأسبوع، سبعة أيام بالتمام والكمال، وبعدها أعود للعمل. أخرج من مكتبه،

وأغلق الباب ورائي بقوة لدرجة أن الجدران تهتز من حولي لتقع الفاز الثمينة على الأرض مهشمة إلى ألف قطعة. ينظر (حازم) إلى قوتي بشيء من الخوف، فيغادر من أمامي على الفور.

أعشق صوت القطار منذ صغري، تعمد أبي أن يجعلني أدمن السفر إلى الصعيد عبر هذه العربات المليئة بالأسرار العجيبة. أتذكر عندما قابل أبي أعز أصدقائه الهارب من الثأر ليختبئ بالقاهرة، ولكن نصحه أبي بالسفر عبر البحر إلى القارة الأوربية حفاظاً على حياته. وفي مرة أخرى، حكى لي عن حبيبته الأولى التي كانت تعتبر جوهرة القرية التي نشأ فيها، ولكن تم رفضه بسبب قصر اليد. أشعر بأنني أشارك أبي العديد من الصفات أهمها "نشفان الدماغ". أجلس بجوار الشباك لأستمتع بسحر اللون الأخضر الذي يعم الأرض في هذا التوقيت المبهج من السنة على الرغم من تضرر الناس منه إلا أنه بالنسبة لي يمثل ذكرى خاصة.

يقاطعني بسؤاله عن أهلي، فأنظر إليه باسمة وأخبره بأن أمي ماتت بسبب المرض الخبيث بينما أبي مات بعدها بسنوات قليلة بعدما تزوج بعد رحيلها بأربعين ليلة بحبيبته الأولى. يضحك ساخراً، وأشاركه الضحك بينما يقع بصري على جدتي الواقفة أمامي بملامحها الجدية، فأتوقف ثم أشعل سيجارة وأهز رجلي اليسرى، فينظر إليها ثم يرفع بصره ليواجهني بنظراته الثاقبة متسائلاً إذا كنت أريده بشكل رسمي أم مجرد علاقة عابرة. أخبره بأن الزواج حلم كل فتاة، ولكن من هو الفارس الذي يقع عليه الاختيار! فيعود إلى أدراجه خائب الرجاء. تمطر السماء بشدة من حولنا، فيلاحظ استمتاعي بارتطام النقاط الصغيرة على الأسفلت، فيمد يده ليتلقي بعضاً منها بينما أطفئ سيجارتي وأخبره بأن علي الرحيل قبل أن يتم استبعادي من المكتب. يمسك بيدي اليمنى ثم يخرج قلما جافا من جيبه ويكتب على كفي اسمه بالخط العربي

(صالح) ثم يخبرني بأنه فعل ذلك كي لا أنساه. لم أنسك يوماً يا صالح، فأين أنت؟!

توقظني إحدى السيدات في محطة سيدى جابر، لتخبرني بقرب الوصول كما تنصحني بعدم النوم لوحدي هكذا ثم تتركني. تلتفت السيدة نحوي بعد لحظات لتسألني عن (صالح) الذي كنت أناديه أثناء نومي، فأنظر لها بدهشة.

****

أخرج من محطة مصر، وأستقل تاكسي إلى ميامي لاستئجار شقة تطل على البحر الذي يعبق بذكريات الماضي. أفتح شرفة الشقة التي تقع في الدور السادس لكي أتنفس طويلاً من رياح البحر المالح لأجد نفسي طفلة مع جدتي جالسة على صخرة كبيرة على الشاطئ، وتضفر شعري وهي تغني لي أغنية لا أتذكر منها سوى اللحن إلى أن يقاطعنا شاب يحمل سلاحاً، ويرتدى زياً عسكرياً ليأمرنا بأن نترك مكاننا على الفور. أسير مع جدتي بضع خطوات ثم ألتفت وأنظر خلفي لأجد أصوات الخيول تعلو ثم أنظر أمامي بخوف. تتوقف جدتي وأتوقف معها لأجد تجمعا لأناس كثيرة حول مصطبة عريضة يصرخون في اعتراض بينما ينساق ثلاث شبان إليها وهم مربوطو الأيادي ثم يقفون عليها ليتم إعدامهم على الفور عقب صدور الأمر من القائد الإنجليزي، فأغمض عيني بسرعة من بشاعة المشهد.

الثورة من أجل إنقاذ الهُوية العربية، الثورة من أجل إنقاذ الأرض من المحتل. المحتل يورث لصاً الأرض. تصيح المرأة ذات الشعر الأشعث على خشبة المسرح قائلة بأنه لم تكن توجد كائنات تعيش على الأرض المقدسة حتى أتى الجنس السامي إليها. تتعالى الأصوات المحتجة في السماء. يريدون المزيد من الأراضي ليكونوا إمبراطورية عظيمة على الرغم من صغر حجمهم بالنسبة للأحجام الأخرى. تُعقد الاجتماعات والمؤتمرات ليبكوا فيها على تراثهم المتشتت، وعلى جراحهم الغائرة من ذلك المضطهد لبني جنسهم ثم يلقون القنابل على كل ما هو حي معللين بأنهم الأعداء. تمسك جدتي السكين وهي تحكي لي هذه القصة باختصار إلى أن تقطع يدها بدون أن تدري، فتنزف دماء كثيرة، يزداد بسرعة شديدة إلى أن يتحول المكان إلى نهر طويل من الدماء، ونحن و اقفتان في منتصفه. أنظر إليها متسائلة ما الذي يحدث؟ فتخبرني بأنها اللعنة التي حلت علينا

حتى نهاية العالم. أسمع عويل وصراخ أطفال ونساء قادماً من كل مكان، إلى أن أجد نفسي غارقة في الدماء.

أستيقظ على صوت الفيلم الذي يعرض على شاشة التليفزيون أمامي، فأقوم لأخرج من الشقة. أتمشى على الكورنيش في تأمل بينما يقاطعني نشوب خناقة كبيرة بين شاب بسيط الهندام ورجل ثري، لا أفهم سبب الخناقة سوى أن الشاب يريد المزيد من المال لبيعه شيئاً لهذا الرجل. لعنة الله على المال الذي يجعل هذا الرجل يهين الشاب ثم يرمي له بعض العشرات من الجنيهات على الأرض. يقع بصر هذا الرجل علي وأنا أنظر إليه بشيء من الاحتقار ثم أواصل سَيري إلى أن أصل إلى العصافرة ثم أدخل كافتريا تطل على الشاطئ مباشرةً، ليقع على وجهي رذاذ البحر وأنا أتناول القهوة وأدخن سيجارتي في غضب، فقد عكرت هذه المعركة صفو ذهني الذي لم أفز به منذ فترة طويلة. تجلس في الجهة المقابلة لي فتاة تصغرني بأربع أو خمس سنوات، وتطلب الحساب، ولكن يبدو

عليها الارتباك عندما لا تجد معها مالاً يكفي. أتدخل بسرعة لأمنع عنها الإحراج، وأدفع بدلاً منها. تشكرني بشدة وهي دامعة العينين، فأدخل معها في حوارلعلني أخفف عنها. نجلس معاً على الكورنيش، وتنظربعيداً كأنها تستعيد ذكرياتها، وتخبرني بأن اسمها (وفاء).

رياح الماضي

أتحسس الدماء المسالة من أنفي ثم أحاول أن أنهض بكل عزيمتي. أنظر في المرآة لأرى وجهي الجميل المشوّه من شدة الضرب لأبكي في صمت.

أحببت جاري وصديقي، كان اسمه (آدم)، عشنا طفولتنا معاً، وعندما كبرنا قررنا الزواج على الرغم من رفض عائلتي بسبب الفارق الاجتماعي (لعنة الله على الماديات)، فتزوجنا سراً إلى أن دقت طبول الحرب في بلدي العزيز، وتغيرت الأحوال من سيئ إلى الأسوأ.

قرر أبي أن يهاجر إلى مصر حتى نكون في مأمن على الرغم من عدم استقرار الأحوال بعد رحيل مبارك. ذهبت إلى (آدم) على الفور وأخبرته بما ينوي أبي فعله، ولكنه صمت، نظر إلي ولم يرد. أخبرته بأنني حامل، فنظر إلي باكياً ثم ضمني إلى حضنه. سافرت مع أهلي

إلى القاهرة، وكان من المناسب لنا أن نعيش في حي متوسط. لا أعرف ما الذي أفعله بشأن حياتي الجديدة مع إخفاء زواجي وحملي. حاولت الاتصال بآدم، وأخبرني بأنه طلقني و أنني حرة كما نصحني بأن أتخلص من هذا الجنين وأن أنساه، فهذه الحياة لا تستحق أن يولد بها طفل ليرى معاناة أهله بدون ذنب. أغلقت الهاتف و أنا أبكي بحرقة، فالدمار يحيط بي من كل جانب ولا أعرف ما الذي يجب علي أن أفعله. استطعت أن أجهض نفسي، ولكن أمي انتبهت إلى تغير أحوالي، فصارحتها بسري. صُدمت في بداية الأمر ثم انهارت في البكاء، وأمرتني بألا أخبر أحداً مهما كلفني الأمر.

نفدت الأموال التي معنا، واضطر جميع أفراد العائلة أن يخرجوا للبحث عن فرصة للعمل في المدينة القاهرية، وبالتدريج تناسيت قصتي مع آدم. أهلك العمل أبي، حيث كان يقف ساعات طويلة في محل الطعام الذي كان يعمل به، وبسبب كبر سنه لم يستطع أن يكمل هناك. اضطرت أمي أن تنزل بحثاً عن عمل لسد

احتياجاتنا. أصبحنا لا نرى بعضنا البعض، فالحياة هنا صعبة على الجميع، الجميع يشتكي غلو الأسعار، المصري قبل السوري والعراقي واليمني إلى أن طرق باب بيتنا عريس يطلب يدي من أبي. لا نعرفه ولا هو يعرفنا، ولكنه عمل بنصيحة الشيخ الذي أوصى بالستر على بنات العرب النازحات بسبب الحرب. كان صريحاً مع أبي، فهو متزوج ولديه طفلان، ولكنه أراد أن يكسب ثواباً في الدنيا كما أن حاله ميسور، ويستطيع أن يحرم أهلي من هذا الشقاء. الجميع سعدوا بهذا الحل المناسب الذي أتى في التوقيت المناسب بالنسبة لهم بينما أنا فماذا أفعل والجميع ما عدا أمي على ثقة بأنني عذراء؟!

أخذتني أمي سراً إلى أحد الأطباء لإجراء العملية، كنت مرعوبة وخائفة، ولكن ما باليد حيلة. تذكرت آدم، مرت لقطات سعادتي وحياتي أمام عيني كأنني أحتضر. كانت الدموع تتساقط وحدها كأوراق الخريف من شجرة عجوز، وصوت بداخلي يصرخ قائلاً:

"سأكون لغيرك يا آدم، تعال لتنقذني". خرجنا من العيادة، و أنا أحاول السيطرة على أعصابي، ولاحظت أن أمي هي الأخرى تشاركني نفس الألم. سرنا معاً صامتين، ننظر إلى الأرض ثم إلى السماء لعلها تحدث معجزة ما تخلصنا مما نحن فيه.

دخلت حجرة النوم بفستان الزفاف الذي تحلم به كل فتاة ما عدا أنا ثم دخل ور ائي العريس المنشود، وأغلق الباب وراءه وهو ينظر إلي مبتسماً كأنه أمام ديك رومي فخم منتظر أن يأكله. اقترب مني و أنا لا زلت أنظر إليه برعب ثم أمسك ذراعي بيده وطلب مني ألا أخافه. أغلقت عيني ووضعت صورة (آدم) أمامي إلى أن استيقظت في اليوم التالي لأجد نفسي لوحدي في الحجرة. بحثت عنه في الشقة، ولكني لم أجده. تسمرت في مكاني للحظة ثم ذهبت لأستحم إلى أن شعرت بأصوات أقدام تتقدم ناحية الباب لتفتحه ثم وجدت عريسي المنشود و اقفاً أمامي مبتسماً ثم دخل وأغلق الباب وراءه.

أصبحت كالدمية التي يلعب بها طفل صغير منذ الصباح حتى العصر كل يوم لأنه يعود بعد ذلك إلى بيته لقضاء بعض الوقت مع زوجته وأولاده. أرهقت نفسياً وبدنياً وكرهت جسدي، كنت أتناول حبوب منع الحمل بانتظام حتى أتجنب الحمل بناء على أوامره وإلا سيطلقني وبالتالي ينقطع مورد الرزق الذي أصبح أساسيا في بيت أهلي. تبكى أمي عندما تأتي لزيارتي في المساء، وتتمنى لو لم نغادر بلدنا، ولكن لا ينفع الندم في هذه اللحظات.

بدأ عريسي المنشود في الشعور بالملل، ولم يعد يقترب مني كالسابق حتى بدأت أستعيد صحتي بالتدريج وعاد جمالي كالسابق. أتت أمي لزيارتي لتشكو لي عدم إعطاء زوجي المال لأبي كما اتفقا منذ فترة، لذلك سألته عن السبب، فأخبرني بأنه يبحث عن عروسة جديدة، وأنه سوف يطلقني لأن الحياة معي أصبحت مملة ولا جديد فيها. أدركت لحظتها أن كل شيء ينهار أمامي، صرخت في وجهه بغضب، وعنفته، ورفضت هذا المبدأ المتدني من الإنسانية كما

وصفته بالمتوحش، فأخذ يضربني بشدة ثم طلقني وأمرني بأن أجمع أغراضي، وأرحل عن بيته، وأن أخبر أبي بأن الاتفاق بينهما قد تم إلغاؤه.

أتحسس الدماء المسالة من أنفي ثم أحاول أن أنهض بكل عزيمتي. أنظر في المرآة لأرى وجهي الجميل المشوه من شدة الضرب لأبكي في صمت. عدت إلى حياتي من جديد، وبحثت عن عمل لكي أستطيع أن أقف على رجلي. الكل حزين، الكل ينظر إلى الأرض في خجل مما حدث. حاولت الاتصال بآدم لأخبره على كل شيء، ولكن بلا فائدة، فالحرب دمرت بلدتنا والسكان رحلوا عنها.

تمر الأيام، وتمر معها الأحزان التي لا تنتهي لأستيقظ في يوم على خبر إنتشال جثث من البحر المتوسط بسبب غرق زورق عليه العديد من السوريين الهاربين من الدمار، واكتشف أن من بينهم آدم. صرخت، تألمت، بكيت، نحبت، لعنت كل شيء في هذه الحياة، فقد ذهب آخر أمل لي في الدنيا. كرهت كل شيء، وحاولت الانتحار،

ولكني فشلت. لم أعد أتحدث مع أحد، لم أعد أضحك ولا أبتسم، لا أحتمل فكرة مناقشة الزبائن معي.

انعزلت، ثم قررت اليوم أن أسافر إلى الإسكندرية وأشتري الورد الذي كان يحبه آدم، و أقف على الشاطئ أنعي نفسي وآدم من هذه الحياة.

تشابـه

أجلس أمام اللاب توب، أحاول تدوين ما حكته لي (وفاء) عن قصتها الحزينة، ولكني لا أعرف من أين أبدأ. تدخل أمي الصالة وهي تشرب قهوتها المعتادة، وتجلس بجواري، وتحاول أن تدلني على الطريق. أنظر إليها وأسألها عن سر اهتمامها بقصة وفاء، فتخبرني بأنها تشبهها إلى حد ما. استغرب بشدة، فقصتها مع أبي التي حكتها لي ذات يوم لا تمت بصلة إلى قصة وفاء! تنظر بعيداً كأنها تتذكر سرا خفيا مضى عليه العديد من الأيام التي لا حصر لها، لتخبرني بأول قصة حب لها عندما كانت في الرابعة عشرة من العمر، هذه القصة التي لم يعلم عنها أحد سوى بطلها. كان قريباً لها من الأرض المحتلة، تقابلا عندما زارت عائلته عائلتها في إحدى المناسبات، وهناك تلاقت النظرات التي تفيض بالمشاعر الجميلة، واستمرت علاقتهما سراً لفترة طويلة تبادلا فيها المراسلات الغرامية إلى أن تم

تهجيرهم قسراً ، وتم إجبارهم من قبل قوات الاحتلال على ترك الدار، وبالتالي انقطعت الأخبار إلى أن وصل لها خبر بعدما أنجبتني بفترة بأنه يستقر في الهند. سألتها إذا تقابلا بعد ذلك، ولكنها أخبرتني أنها كانت تتمنى أن تحدث معجزة ولو بسيطة حتى يتقابلا ثم نظرت إلي، وتنهدت قائلة: "بالقلب حياة تنبض حتى بعد الممات".

هكذا بدأت تدوين قصة (وفاء) التي أكملتها باكية:

تقف (وفاء) بنظراتها الحزينة أمام شاطئ الإسكندرية إلى أن يقاطعها جرس الموبايل، ولكنها لا ترد، وترحل ببطء عن المكان. تسير على الكورنيش مستمتعة بنسيم هواء فصل الربيع، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة، إلى أن يقف أمامها شخصاً، فيعيقها عن التقدم، تنظر إليه متفحصة وجهه في ذهول.

يتبادلان النظرات، وهما جالسان على الكورنيش ويمسكان بأيدي بعضهما البعض كأنهما يتذكران أيام الطفولة السعيدة. سألته عن أحواله وما الذي جاء به إلى مصر، أخبرها بأنه بحث عنها

كثيراً منذ أن وطئت قدماه مصر كما استطاع أن يدبر أحواله، والآن أصبح يمتلك مطعماً مشهوراً بالإسكندرية.

****

"سعيد"

هذا الشاب الذي كان يطاردها أينما ذهبت، وكان دائماً ما يدخل في شجار مع (آدم) بسببها، كان يغار عليها بشدة، وحاول أن يقترب منها، ولكن (آدم) ذلك الساحر كان يمتلك قلبها وعينيها، فقد كانت لا ترى غيره أمامها. أتحبه الآن، وتترك (آدم) في طي النسيان؟! أتخبره عما حدث لها مع زوجها السابق وحالها وحال أسرتها المنهار؟! وإذا تسامح مع كل هذا، هل تضع (آدم) بين صفحات الذكريات؟! لا تعلم، ولكنها شعرت لأول مرة بالارتياح عندما رأت سعيد. عادت إلى القاهرة بدون أن تخبر أحداً عن سعيد، وقررت أن

تعيش على ذكرى (آدم) إلى الأبد، ولكن ها هو (سعيد) يطاردها من جديد.

دخلت الصالة لتجده جالساً مع أبيها وعائلتها، عمت البهجة والسرور المكان، و انبعث رحيق الذكريات من جديد، ليأتي بكل عزيز رحل منذ زمن. ابتسمت (وفاء) لأول مرة ثم ضحكت من قلبها بعد ما عاشته من صعاب، ولكنها كانت تشعر بالخوف... بالخوف الشديد من هذه اللحظات لتذهب إلى دفاتر النسيان. تكررت زيارات (سعيد) بحجة افتتاح فرع للمطعم في القاهرة ثم أتت الزيارات بدون حجة. لاحظ الجميع تودد (سعيد) إلى (وفاء) لاستعادة ما كان، وترددوا في الحديث معها بهذا الأمر، ولكن لم يتردد سعيد، وطلب يدها من أبيها أمامها. ظلت و اقفة تنظر إليه مندهشة من جرأته التي عهدتها من قبل، وبدون أن تشعر نطقت: أو افق على الزواج!

تناست آدم، واستطاع (سعيد) أن يضمها إليه ويحتويها في فترة قصيرة، وتساءلت من جديد، هل كان حبها لآدم حقيقياً أو كان لهواً أحمق؟

استطاعت أن تعيش في القاهرة بجوار عائلتها، وتحملت سفر (سعيد) المتكرر إلى الإسكندرية للاطمئنان على المطعم الذي كان يطول أحيانا إلى عشرة أيام متواصلة. كانت سعيدة بحياتها، ولم تمل من رتابة الوضع إلى أن انتقل في الشقة المجاورة لها عائلة الأستاذ صابر هذا الشاب الوسيم الذي يتحمل مسئولية أمه المريضة وأخواته البنات الأربعة. أدركت (وفاء) بأن ما عانته قليل بالنسبة لهذا الشاب الذي لا يتحدث ولا ينظر إلى أحد، كأنه يعيش في رحم الألم وحيداً. حاولت أن تقدم لهذه الأسرة العون بسؤالها المتكرر إذا كانوا يحتاجون لشيء من السوق، ولكن كانت تستقبلها الأم بترحاب وشكر. ولأول مرة تشعر (وفاء) بأن الله قد أعزها من ابتلاء المرض، وحمدت الله على كل شيء.

طالت غيبة سعيد، وكثر معها سؤال الأم عن سبب عزوفه عن القاهرة، ودارت الشكوك في صدر وفاء، وجعلتها تشك حينما يصر على عدم سفرها إليه إلى الإسكندرية مما جعلها تبحث في الأدراج والدولاب والملفات على أي شيء يجعل من شكوكها أوهاماً أو حقائق بالمستندات، ولكنها لم تجد شيئاً في منزلها. حاولت الاتصال بسعيد أكثر من مرة، ولكنه لا يرد عليها. شعرت بالخوف لعل شيئاً ما قد حدث له، وقررت السفر إليه بدون علمه أو علم أهلها، وبالفعل ذهبت إلى محطة مصر، وأخذت القطار.

فتحت عينيها لتجد نفسها نائمة على الكرسي، وأشعة الشمس تصوب أسهمها عليها. نظرت في الساعة لتجد أن الوقت لا يزال مبكراً، نظرت حولها لتجد أن القطار قد دخل محطة سيدى جابر، ولكن ما أدهشها حقاً، هو سعيد، نعم (سعيد) واقفاً مع سيدة وطفل على رصيف المحطة المقابل ومعهما حقيبة. أخرجت الموبايل واتصلت به وأخذت تراقبه من بعيد، ولكنه أخرج الموبايل ونظر

فيه ثم وضعه ثانية في جيبه بدون مبالاة. خرجت بسرعة من القطار قبل أن يتحرك، ووقفت على الرصيف المقابل لرصيف سعيد، ونظرت إليه إلى أن انتبه إليها، وارتسم على ملامحه الارتباك الشديد ثم دخل القطار المحطة ليفصلهما عن بعض.

عادت ثانية لتقف (وفاء) بنظراتها الحزينة أمام شاطئ الإسكندرية إلى أن قاطعها جرس الموبايل، ولكنها لم ترد، ورحلت ببطء عن المكان. سارت على الكورنيش مستمتعة بنسيم هواء فصل الربيع، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة، إلى أن وقف أمامها شخص، فأعاقها عن التقدم ثم نظرت إليه متفحصة وجهه بذهول. تنطق حروفه بألم ودموعها تتساقط من عيونها كمطر الشتاء: "آدم، أهذا أنت؟". ضمها إليه طويلاً لتنهار وتقع على الأرض، وتصرخ منادية اسمه بحرقه. تجمع حولها الناس، فأخذت تصيح بهم بأن يبتعدوا عنها وأن يتركوا لها حبيبها الغير مرئي، فهو

أحن عليها منهم جميعاً إلى أن هب صفير سيارة الإسعاف لتشعر (وفاء) بأن روحها صعدت إلى السماء وهي لا تزال بين ذراعي آدم.

سمعت الطبيب الذي يخبر أهلها بأنها تعرضت لصدمة عصبية، ولكنها لم تفتح عينيها. لم ترد الحياة، فقد تملك منها اليأس. جاء (سعيد) وأخذ يقبل يدها طالباً عفوها، ولكنها نهرته، أخبرها بأنه لم يخبرها بزواجه حتى لا تنزعج، ولكنها نظرت إليه طويلاً بدون أن يصدر منها أي رد فعل.

ذهبت إلى بيتها، وفتحت دولابها وأخذت ملابسها بعد أن حطمت صورة زفافها، ولكن أوقفها (سعيد) طالباً منها أن تنتظر للحظات لكي يشرح لها ظروفه، ولكنها خرجت من الباب، فلن يمنعها أحد من الذهاب إلى آدم.

****

يقاطعني صوت نغمة الموبايل اللا نهائية، لأجد (حازم) هو المتصل، ولكني أرمي الموبايل بلا مبالاة بجواري. أنظر حولي لأجد إشراق يوم جديد يبتسم لي، فأبادله الابتسامة بنفس راضية. رائحة القهوة تفوح في المكان، لأذهب على إثرها إلى المطبخ الخالي من كل شيء لأجد أمي تعد لنفسها فنجاناً ولي معها ثم تطلب مني أن أدخل لأستحم. أجدها تغسل لي شعري كما اعتادت أن تفعل عندما كنت طفلة ثم تجذبني إليها وتخبرني بهمس بأنها كانت تتمنى أن ترى أحفادها قبل أن تموت، يلعبون في دارها القديمة، فأسألها عن حياة الدار الآخرة، لأجدها تتلاشى من أمامي.

حكت أمي لي يوماً ما كيف انتقلت إلى مصر بعد حرب الست أيام، كان عمرها سبع سنوات وقتها، وكانت جدتي فقدت زوجها، و أبناءها السبعة ما عدا أمي.. هي التي استطاعت أن تنجو من هول الحرب. على حد كلامها، فقد رفضت جدتي أن تستقر في مخيمات الأردن، واستطاعت بكل ما لديها أن تسافر إلى مصر. تزوجت بعد

فترة من رجل بسيط، وعاشت حياة عادية وصممت أن تكمل أمي تعليمها. لا أزال أتذكر ملامح جدتي، فهي تشبهني إلى حد كبير، أوصتني قبل أن تموت بأن أعود إلى الديار، وأستعيدها، "فأرض الأجداد يرثها الأحفاد ولو بعد حين".

أنظر إلى سقف الحجرة الذي يُضيء برسومات فسفورية خضراء يميل بعضها إلى الأزرق، وأسأل نفسي عن سبب رفضي للارتباط على الرغم من إتمامي للعقد الثالث من العمر، ولكني لا أجد سبباً. كنت مرتبطة جداً بأبي ذي الأصول الصعيدية ولكنه كان مستنيراً، فقد جعلني أعتمد على نفسي منذ نعومة أظافري. أحياناً أرجع السبب لعدم وجود شخص ينافس أبي على مكانته في قلبي، وأحياناً أخرى بسبب حلم العودة إلى الجذر الذي نشأت منه. لا أعلم، ولكن (وفاء) أثرت بداخلي لدرجة جعلتني أفكر في حازم، وهل قسوت عليه في ردي أو أنني رأيته على حقيقته بدون قناع؟!

أفتح عيني لأجد أمامي طفلة عمرها بضعة شهور، تنظر إلي وتبتسم، فأبادلها الابتسامة ثم أعتدل في جلستي، وأنظر من الشباك لأجد فرع رشيد ينبع بالحياة. أخرج من محطة مصر، وأنظر حولي في ظل هذا الزحام الليلي الغير منقطع على أمل أن أجد تاكسي يوافق أن يصلني إلى المنزل بدون استغلال، ولكني أتفاجأ بظهور (حازم) أمامي مبتسماً.

أنظر إليه متسائلة في حين يضع الجرسون أطباق الطعام أمامنا. يميل نحوي، ويخبرني بأنه يحبني، فأضحك مما يزيد من الحيرة المنبثقة من أعينه.

- "لماذا تحبني؟".
- "لأنك أول فتاة ترفضني".
- "يا إلهي، هكذا يكون الرجال، يجرون دوماً وراء الصعب".
- "هذا لأنه مثير".
- "حازم، أرجوك، ابتعد عني".

- "مصرية تتمتع بعناد الفلسطينية".
- "المصرية معروفة بجبروتها".
- "إذن فأنت خليط بين الجبروت والعناد".

لأول مرة أشعر بأنني أطير في السماء بدون عائق، أنظر من فوق على الناس التي تبدو صغيرة في الحجم. أنزل بسرعة الرياح لأقف على شاطئ يافا العتيق، ولكني لا أجدها كما وصفتها لي جدتي، فقد أزيلت كل ملامح البلد الجميلة وكل ما تبقى منها هو القليل!

تقاطعني أصابع (حازم) التي تلعب في شعري ثم أشعر بأنفاسه تختلط مع أنفاسي، وجسده يبعث بداخلي دفئاً لم أشعر به طوال حياتي. صوته يرن في أذني قائلاً: "لا أريد جسدك، ولكني أبحث عن روحك، فمن يمتلك روح فتاة مثلك فقد امتلك الحياة". أتجول ببصري في المكان لأجد نفسي على

جزيرة تحيطها المياه من كل جانب، ويمر عليها كل أنواع الطيور. أقف، لأجد نفسي في ملابس جدتي ومفتاح الدار في يدي، ولكني لا أستطيع الخروج من الجزيرة، فلا توجد وسيلة للذهاب إلى الدار. أسمع من يناديني، أستدير لأجد (وفاء) في المياه ترفع يدها لتستغيث بي، أجري نحوها لأنتشلها من الغرق، ولكن يقف (حازم) حائلاً بيني وبينها، معللاً بأن لديه أسبابه الخاصة التي تمنعني من الخروج!

يمسك يدي، ويضعها على شفتيه لكي أحس بكلمة أحبك تخرج من قلبه بصدق، ولكني أبكي حيث طفت جثة (وفاء) على سطح المياه. يا ويلتي، لقد قتلتها!

يضع أرنبة أنفه على خدي لكي يوقظني من نومي العميق، فأنظر إليه ليخبرني بأن الساعة السادسة والنصف صباحاً، وأن الحمام جاهز لكي أستعد للذهاب معه إلى العمل حتى لا يوبخني الرئيس كالمعتاد. أضحك، وأنهض بكسل لأجد نفسي

مرتدية ثيابي التي تفوح منها رائحة العرق، فأفتح حقيبتي وأخرج منها ثيابا جديدة. أخرج من الحمام لأجده ببدلة جديدة وقد أعد الفطور، أثني على شقته وأنها أكثر تنظيماً من شقتي التي تعمها الفوضى في كل مكان كما أشكره على استضافته لي الليلة السابقة، فيعرض علي بأن أتردد عليه من حين إلى آخر أو أن نعيش معاً، ولكني أرفض.

****

أخبر الرئيس بالمستجدات التي توصلت لها في القضية الموكلة إلي، وتناقشنا معاً حول الثغرات القانونية التي تتعلق بها إلى أن انتهيت لأجده يشيد بعودتي بهذه الطاقة الإيجابية من جديد إلى العمل، وأن الإجازة قد أمدتني بنشاط غير مسبوق. أعود إلى مكتبي لأجد فتاة في انتظاري، لا أعرفها، ولكنها تخبرني بأنها في أمس الحاجة إلى مساعدة حيث إنها تعرضت لحادث مأساوي، وتريد حقها.

عيـوشـة

مشكلتي في الحياة هي أمي.

أمي ورثت عن أبيها الكثير من المال والأملاك، لذلك فهي مطمع للعديد من الانتهازيين، محبي السلطة والجاه والمال بينما أمي بطبيعة الحال تمتاز بالطيبة والتلقائية! توفي أبي قبل وفاة جدتي أم والدتي بثلاثة أشهر لترث أمي كل ما يملك لأنها الوريث الوحيد الشرعي، ومن هنا تبدأ المأساة.

****

<u>المشهد الأول:</u>

الصالة بها أثاث غال وأنيق ويتوسطها تلفاز من ستينيات القرن الماضي، وعلى الحائط صورتان كبيرتان لجدي وأخي لأبي وعليهما شريطة سوداء.

تدخل أمي -سيدة في منتصف الثلاثين– مرتدية فستانا مزركشا وتحمل في يدها بوكيه ورد بينما يتبعها محسن بيه - رجل في الأربعينيات- يرتدي بدلة، ويبتسم ابتسامة عريضة. تبتسم أمي بينما يجلس أمامها محسن بيه.

أمي: ذوقك لطيف أوي يا محسن بيه.

محسن: شيلي التكاليف يا هانم، ملهوش لزوم، خلاص دا إحنا حايتقفل علينا باب من بكرا.

أمي: حتى لو اتقفل علينا ألف باب وباب، حاتفضل حبيبي.

محسن: و إنتي حاتفضلي نور عينيا.

أمي: محسن.

محسن: عيوني.

أمي: خلي بالك مني.

محسن: ودي عاوزة كلام، طبعاً لازم أخلى بالي منك، دا إنتي نور عينيا. (تتعالى الزغاريد ويسدل الستار).

****

وبعد ما شال ماما في عينه، خرجها تاني منها بس بعد ما اتفقعت!

تتميز الست الوالدة بالآتي: الطيبة، التلقائية، العفوية، الجبروت، النصاحة -فهي نتاج اتحاد كوكب عطارد مع بلوتو- الذي يجمع بين كل شيء وعكسه، وهذا ما يحميها منذ أن ولدت. حاول معها محسن بيه أن يأخذ منها ولو جزءا بسيطا من هذا الميراث، ولكن هيهات، فهذه أمي التي تعشق المليم قبل الجنيه، فكيف يتسنى لها أن تضحي بولد من أولادها؟! دا حتى الضنا غالي!

خاب أمل محسن بيه، وفشلت خططه العديدة، وبات اليأس يحاصره من كل جانب إلى أن مرض بشدة ومات في المستشفى الحكومي، ومن ثم ترث أمي كل ما يملك بما فيه الولاعة الفضة التي ورثها من جده الباشا فؤاد، لتزداد أمي ثراء!

تمر الأيام (الأيام فقط وليس الشهور والسنين)، ويظهر الأستاذ مظهر-الحافظ لكتاب الله كما أصفه- ليدخل حياة أمي بحجة أنه كان أعز أصدقاء محسن بيه زوجها السابق، وبالتدريج أبدى إعجابه بها ثم تقدم لطلب يدها للزواج.

****

المشهد الثاني:

الصالة بها أثاث غالٍ وأنيق مختلف عما ظهر في المشهد السابق، ويتوسطه تليفاز من السبعينيات وعلى الحائط صورة كبيرة لجدي ولأبي ثم صورة صغيرة لمحسن بيه وعليهم جميعاً شرائط سوداء.

تدخل أمي وهي ترتدي السواد وتمسك بوكيه ورد، ومن وراءها الأستاذ مظهر. تجلس أمي بينما يجلس أمامها الأستاذ مظهر.

أمي: ما ينفعش يا مظهر، الناس تقول عليا إيه؟

مظهر: كلام الناس لا بيقدم ولا يأخر.

أمي: طب استنى كمان شهرين ولا تلاتة.

مظهر: طالما العدة انتهت يبقى إيه لزمة الانتظار؟!

أمي: بس...

مظهر(مقاطعا): قضي الأمر الذي فيه تستفتيان.

(تتعالى الزغاريد ويسدل الستار).

****

ما لم تكن تتوقعه أمي، وكذلك أنا والسادة الجيران والمعارف، أن الأستاذ مظهر يشبه أمي حرفياً في الحفاظ على الأموال، بالكاد كان يخرج مليما واحدا من جيبه. اعتادت أمي أن تكون هي العائل لهذا البيت حتى لا يشمت فيها لا قريب ولا غريب، فهذه الزيجة الثالثة لها. لم أحبه يوماً، ولا أتذكر حتى أنه حاول أن يتقرب مني كصديق أو في دور الأب الحنون. كان مؤمناً وفي نفس الوقت جباراً،

لا يستطيع أحد أن يثنيه عن قرار اتخذه يوماً ما ولا عن اقناعه لتبني وجهة نظر مخالفة له. كان يحبس أمي في حجرتها بالأيام، وكنت أرسل لها الطعام خفية حتى تستطيع أن تقاوم هذا العذاب حتى أتى أمر الله الرحمن الرحيم وخلصنا من شروره في حادث سيارة أليم. استيقظ يوم الحادث بمزاج متعكر ثم ضرب أمي بشدة وبدون رحمة، وأخذ مفتاح سيارتها، كل هذا لأنه يرفض أن يتقاعد بسبب بلوغه سن المعاش، وعندما طلب التجديد، قوبل بالرفض الشديد من قبل رؤساءه (أصلاً مكنش حد بيحبه) وهذا اتضح يوم جنازته حيث لم يسر وراء نعشه سوى فئة قليلة جداً!

رفضت أمي الزواج بعدها، وقررت أن تعيش لي، ولكن في قرارة نفسها كانت خائفة من أن تعيد التجربة الأليمة التي عاشتها مع الأستاذ مظهر.

التحقت بالجامعة، وتوسعت شبكة علاقاتي، وأتى الباشمهندس نافع، الأخ الأكبر لصديقتي نسمة لزيارتنا حيث رأى

أمي عندما كانت توصلني في إحدى المرات إلى الجامعة، وأعجب بها. كان فارق السن بينهما لا يذكر، بضعة أشهر فقط، ولكن أمي كانت تبدو شابة، وذلك لأنها حينما تزوجت من أبي كانت تبلغ الخامسة عشرة، وأنجبتني وهي في السادسة عشرة، لذلك كل من يراها يعتقد أنها أختي الكبيرة وليست أمي، وخصوصاً أنها أكثر جمالا مني.

تزوجا بعد عدة اختبارات مريبة وعجيبة من قبل أمي لتتأكد من نية نافع، حيث إنه لا يقع المؤمن في الجحر مرتين. ومن شدة خوفها من تكرار مصيرها مع الأستاذ مظهر، رفضت نافع ثلاث مرات لولا إقناعي لها.

تزوجا وعشنا جميعاً فترة لا بأس بها في سعادة وسرور واستقرار إلى أن اكتشفت أمي ذات صباح عدم وجود نافع في البيت. انتظرته طويلاً ولم يظهر، بحثنا عنه في كل مكان، ولكن دون جدوى إلى أن أتى اليوم التالي وعلمنا أنه تزوج من أخرى لأنه يرغب في الإنجاب. استقبلت أمي الخبر بهدوء تام كأنها كانت على علم

مسبق بهذا، ولكنها كانت تشك على سرعة إقدامه على اتخاذ مثل هذا القرار. بعد أسبوع، أتى نافع البيت، واستقبلته أمي كأن لم يحدث شيئاً. كنت أنظر إلى التمثيلية السخيفة التي كانوا يؤدونها بركاكة أمامي إلى أن ذهبت إلى حجرتي، وبعد قليل سمعت نواح أمي وبكاءها المتواصل وهي تسأله عن سبب جرحها بهذا الشكل الأليم، ولكنه لم يجاوبها بل قام وحضنها بقوة.

ازداد إعجابي بنافع منذ هذه اللحظة، وتمنيت أن يكون لي حبيب يحضنني وقت ضعفي بهذه الطريقة التي أفتقدها. كنت أرمقه بين الحين والآخر بنظرات الإعجاب، وكان يبتسم لي. سألني ذات مرة إذا كان لي حبيب، فأجبته بأنني مغرمة بشاب من عرب ٤٨ قابلته صدفة ذات يوم، ولكني أخشى الإفصاح لأمي حيث رد فعلها سيكون قاسياً بسبب هويته الإسرائيلية. ابتسم لي وأخبرني بأن الحب لا يعرف جنسية ولا أرضا كما أنه فلسطيني، أجبرته الظروف

على حمل هوية العدو ثم همس لي وقال: "اتجنني، إنتي حاتعيشي مرة واحدة يبقى تعملي كل اللي نفسك فيه بشرط ألا تؤذي نفسك".

كان نافع يشجعني دائماً على خوض تجارب ومعارك جديدة، وكان دائماً يحتويني باهتمام غير عادي كأنه أبي الذي لم أعد أتذكره. أحببته بشدة، وكانت أمي تغار مني بسبب قربي الشديد منه إلى أن قررت الانفصال عنه بحجة عدم اهتمامه بها.

المشهد الثالث:

تحتوى الصالة على أثاث فاخر مختلف عما ظهر من قبل، كما يظهر تليفاز حديث وريسيفر وصور جدي وأبي ومحسن بيه والأستاذ مظهر بشرائط سوداء، هذا بالإضافة إلى صورة أمي بفستان الزفاف مع نافع.

تدخل أمي وتقف في منتصف الصالة متوترة بينما يدخل نافع وراءها متسائلاً، ويبدو عليه الغضب.

نافع: طلاق ليه؟ ما إحنا عايشين كويسين مع بعض.

أمي: إنت مش مهتم بيا، طول الوقت قاعد معاها، لدرجة إني بقيت بشك إن بينكو حاجة.

نافع: إنتي لازم اتجننتي أو حصلت لك حاجة في مخك.

أمي: أمال تفسرلي الاهتمام الزيادة عن اللزوم دا إيه؟

نافع: دي بنتي، لازم أهتم بيها.

أمي: لاء، لا هي بنتك ولا انت أبوها.

ينظرلها نافع بغضب ولا ترد.

أمي: لازم تتخطب.

نافع: لمين؟

أمي: لعبد العال، ابن طنط شويكار.

****

كنت أتمنى أن أرتبط بشخص اسمه أحمد، محمد، محمود، ولكن عبد العال، لماذا؟ كما أن المشكلة ليست في اسمه فقط، بل كان يكبرني باثني عشر عاماً بالتمام والكمال. حاول نافع أن يثني أمي عن قرارها السخيف، ولكنها أخبرته بحزم بأنني ابنتها وأنها من تقرر. بكيت بشدة، وشعرت بأن سكيناً تم غرسه في قلبي وتركوه لكي ينزف حتى الموت. ترك نافع البيت اعتراضاً على هذا التعسف بينما أغلقت على نفسي باب حجرتي إلى أن قُرئت فاتحتي على عبد العال، ووضع الدبلة في يدى رغماً عني، ولكني خلعتها كما خلعت جلباب الخوف من أمي وغادرت البيت إلى الشارع حيث الحرية.

****

أنظر إلى عيوشة باستغراب بينما ألاحظ اهتمام (حازم) بما يسمعه، فأسألها عن الحادث المأساوي، هل في علاقتها بالشاب أو اعتراض أمها على هذه العلاقة؟ تخبرني بأن والدتها لم تحتمل فكرة

تمردها، وعصيانها لذلك انتقلت إلى المستشفى على الفور لتفارق الحياة، وتتركها تتعذب بعقدة الذنب طوال حياتها. أسألها عن نافع، فتخبرني بأنه فارق الحياة حزناً على فراق أمها، وبالتالي أصبحت وحيدة، وقررت أن تبيع كل ما تملك وتسافر إلى إحدى البلاد الأوروبية، وهناك عاشت مع حبيبها الذي تعرفت عليه في العمارة التي انتقلت للعيش فيها إلى أن تفجرت بينهما الأزمات، وعادت إلى مصر لتبدأ حياتها من جديد ثم تلتفت لي والدموع تتساقط بدون إرادة منها كأنها تشاهد فيلماً مأسوياً أمامها.

****

م/١ ليل/خارجي.

القهوة.

يدخل صابر –شاب في العشرينات، وسيم وأنيق- القهوة، ويجلس مع مجموعة من أصدقائه الذين يماثلونه في العمر وهم عزت ورؤوف.

عزت: عملت إيه؟

صابر: اسكت والنبي.

رؤوف: إيه اللي حصل؟

صابر: اللي حصل ما يتحكيش.

رؤوف: يا عم وغوشتنا.

ينظر لهم صابر كأنه يتذكر.

فلاش باك.

****

م/٢ نهار/داخلي.

فلاش باك.

الصالة – شقة عيوشة.

تحتوى الصالة على أثاث فاخر، وتظهر صورة كبيرة لأم عيوشة على الحائط وعليها شريطة سوداء.

تجلس عيوشة أمام صابر، ويبدو عليها التوتر الشديد بينما يبتسم هو إليها.

عيوشة: أنا عاوزة أصارحك بشئ مهم، لأن الشفافية مهمة بين اتنين داخلين على جواز

صابر: خير!

تنظر عيوشة إلى الأرض في خجل.

عيوشة: أنا كنت أعرف واحد بس انفصلنا لأننا مقدرناش نكمل مع بعض.

ينظر إليها صابر، وتختفي الابتسامة من على وجهه بينما تنظر إليه عيوشة متسائلة.

صابر: تعرفيه إزاي يعني؟

تنظر عيوشة إلى الأرض.

صابر: طبعا دي حياتك وإنتي حرة فيها بس أنا آسف مش حاستحمل حاجة زي كدا.

قطع.

م/٣ ليل/خارجي.

عودة من الفلاش باك.

القهوة.

تلمع أعين عزت ورؤوف وهم يتابعون (صابر) الذي يبدو على وجهه الضيق.

عزت: عداك العيب.

رؤوف: ربنا يعوض عليك.

عزت: طب ليه ما جربتش تعملها معاها طالما البطيخة طلعت قرعة؟

ينزعج صابر بشيء من الزيف، ويلتفت إلى عزت.

صابر: لا، حد الله بيني وبين الحرام، أنا عندي ولايا، ربنا يسترها عليهم.

قطع.

م/٤ نهار/خارجي.

أمام عمارة عيوشة.

يسير عزت في الشارع إلى أن يصل أمام العمارة التي تسكن فيها عيوشة، وينظر باتجاه شقتها ثم يُسمع جرس الباب.

قطع.

****

م/٥ نهار/داخلي.

الصالة – شقة عيوشة.

ينظر عزت لها ويبتسم بينما تجلس عيوشة أمامه، ويبدو عليها الخجل.

عزت: إيه؟ مش عاوزة تقولي حاجة؟

عيوشة: اللي عندي قولته، ولازم من البداية يكون في شفافية.

عزت: ع العموم، مفيش مشكلة.

تبتسم عيوشة وتنظر إليه في سعادة.

عزت: بس أنا بقترح أننا نتجوز عرفي.

عيوشة (بصدمة): ليه؟

عزت: يعني ملهاش لزمة إن الناس تعرف اللي بينا، اعتبريني زي صاحبك اللي خلع.

تنظر إليه عيوشة بغضب شديد.

قطع.

م/٦ ليل/خارجي.

الشارع.

يعبر عزت الشارع غاضبا ليجد (رؤوف) أمامه ثم يسيران معا.

رؤوف: إيه يا عم، كنت فين؟

عزت: كنت عند عيوشة.

رؤوف(بصدمة): إيه؟ بتعمل إيه؟

عزت: قولت أروح أسترعليها.

رؤوف: و إنت حاتتجوز واحدة كسر؟

عزت: أنا قولت أسترعليها عرفي يعني.

رؤوف: و إيه اللي حصل؟

يتوقف عزت عن السير، ويبدو عليه التردد للحظات ثم تلمع عيناه ويلتفت إلى رؤوف الذي ينظر إليه متسائلا.

عزت: أبدا، ما أخدتش في إيدي غلوة.

رؤوف: يا ابن اللعيبة.

يستأنفا السير من جديد.

عزت: عيب عليك.

رؤوف: أمال ما لك كدا؟ وشك مقلوب ليه؟

عزت: أصلي ندمت أوي.

روؤف: دي شمال، خسارة فيها الندم.

قطع.

م/٧ ليل/داخلي.

أمام شقة عيوشة – الصالة.

تفتح عيوشة الباب لتجد (رؤوف) أمامها الذي يتفحص النظر فيها، ويبدو عليه السُكر.

عيوشة: إيه؟ عاوز إيه؟

رؤوف: عاوزك.

تغلق عيوشة الباب، ولكنه يمنعها، ويدخل الصالة ويغلق الباب وراءه، فتصرخ عيوشة وتجري بعيدا.

عيوشة: إنت عاوز إيه؟

يهجم رؤوف عليها، ولكنها تحاول الدفاع عن نفسها.

رؤوف: إيه؟ عاملالي فيها الشريفة العفيفة يا بنت الكلب!

عيوشة: حرام عليك، ارحمني.

يوقعها رؤوف على الأرض، وينظر إليها، ولكنها تحاول أن تجري بعيدا ولكنه يمنعها.

عيوشة: خد كل الفلوس بس سيبني، حرام عليك.

يهز رؤوف رأسه بالنفي ثم يُسمع صراخ عيوشة.

قطع.

تأملات متلاحقة

يناولني (حازم) فنجان القهوة وأنا أقف في شرفة منزله ثم نجلس معاً، لأجده يسألني عن رأيي في موضوع عيوشة، وهل تستحق المساعدة؟ فأجابته بأنها تستحق على الرغم من أنها وثقت في شخص لم يقدرها. وجدت الاستغراب يشوب وجهه، وعندما سألته عن السبب قال لي: إنها علاقة كأي علاقة ما دام كلا الطرفين متفقين على الانفصال. نظرت إليه متسائلة إذا كان سيسلك نفس النهج إذا نال غرضه مني، فتنفس بغضب في احتجاج رسمي بأن أصابعي الخمسة ليسوا مثل بعض. رفعت يدي لأرى أصابعي الخمسة، لكنه أخذها وقبلها معلناً أنها أجمل أصابع رآها في حياته. أتعجب من تصرفاته الصبيانية كثيراً، فلا أعرف إذا كان يشدني إليه بكلماته اللطيفة أم يريد كسر الحواجز المحفورة بداخلي. نعم، أنجذب إليه وأشعر باحتياجي إليه، ولكن أخاف أن يصبح هو محور

حياتي الذي أدور حوله بطريقة عمياء، لذلك علي أن أحذر الانجراف وراء مساعيه الخفية.

يتصل الرئيس ليخبرني بأن أتولى قضية عيوشة على الرغم من أن بداخلي شعورا أشبه باليقين أنها تستحق هذه النهاية المأساوية. جلست على حافة السرير أفكر في مصير هذه الفتاة، فلماذا أخبرت كل من يتقدم إليها بعلاقاتها السابقة، فهذا غباء في ظل مجتمع لا يعرف الغفران قلبه. يقاطعني طرق على باب الشقة لأجد أمامي (حازم)، نتبادل النظرات لبضعة لحظات إلى أن يقتحمني بدون مقدمات.

وجدت نفسي في لحظة على الطريق الذي سارت فيه عيوشة من قبلي، وأصبح لي عاشق يمتلكني، ربما لم يستطيع التحكم في بعد، ولكنه يمتلكني. أنظر إلى سقف الحجرة الممتلئ ببيوت العنكبوت في شرود، تأتي صور لجدتي ولأمي في تلاحق مستمر، أجد نفسي طفلة ألعب مع أحمد ابن الجيران قبل أن يتوفى في حادث

سيارة لعين بعد أن اتفقنا على المذاكرة معاً. وهذا الشخص الذي لا أتذكر اسمه أول قصة حب في حياتي بالنظرات التي تشوبها الخجل عندما كنت في الإعدادية بينما هذا بطل حياتي في الثانوية، وهذا في الجامعة. ما كل هؤلاء الأبطال الأوغاد؟ أين كانوا؟ وماذا أصبحوا الآن؟ ولماذا يأتون لزيارتي الآن؟!

يدخل (صالح) الحجرة ليتمدد بجواري، فأصبح بين (صالح) وحازم، مشوشة العقل، لا أعرف لمن أذهب منهما، فهما يدخلان في إطار الصورة التي طالما حلمت بها.

أجد أمام السرير امرأة ورجلا يقفان يتشاوران بينما بجوار الشرفة شجرة تفاح، أحاول أن أنهض من مكاني ولكن ذراع (حازم) تشدني نحوه. المرأة تصمم على تناول التفاح بينما يرفض الرجل إلى أن يقتنع بعد فترة، وعندما يلتقط التفاح تُفتح أبواب الحجرة فجأة ويخرجان بعد أن طردتهما عاصفة عاتية.

أنا من ارتكبت الخطيئة منذ قليل، أحاول أن أغسل هذا الإثم بالماء على الرغم من علمي بأن من ينزعه عنى هو الدماء. تتساقط المياه من الدوش كالأمواج، أنظر أمامي لأجد أبي و اقفاً، وفي يده السلاح متأهباً لكي يغسل شرفه بنفسه. أنهار من البكاء، وأجلس على الأرض بخيبة أمل لم أشهدها من قبل إلى أن يدخل حازم، ويقترب مني ثم يضمني إليه بقوة لتتساقط علينا قطرات المياه في صمت.

أجلس في شرفة المنزل أراقب شروق الشمس وحدي بينما أسمع غلق الباب من بعيد. أرى قوس قزح يُرسم في السماء، والسحب تسير ببطء، بأشكالها المختلفة. تدخل أمي وهي تضحك ثم تناولني سيجارتها، ونقف معاً على سور الشرفة نراقب الناس من أسفل. تسألني عن طبيعة علاقتي بحازم، وتلومني على استسلامي له بهذه السهولة، ولكني لا أرد عليها بل أستمتع بتدخين السيجارة. يقع بصري على عيوشة وهي تسير بسرعة في الشارع، لعلها خائفة

من شيء ما، ولكن مع تصاعد نباح الكلاب ومحاصرتها لها، تقع الفتاة على الأرض لا حول لها ولا قوة بينما تتكتل عليها الكلاب وتنهشها.

أجري بسرعة تاركةً أمي تشعل سيجارة أخرى، وأنزل إلى الشارع لأجده خالياً من أي شخص. أنظر حولي لعلني أجد عيوشة، ولكنها اختفت. أرفع بصري لأعلى لأجد أمي تنظر لي بضيق، وتشاور بأصبعها لأصعد.

أتصفح الفيس بوك لأكتشف أن (حازم) قد أتم عقده الرابع، فأقرر أن أحتفل معه بهذه المناسبة بطريقة مختلفة. نذهب إلى منزلي بعد الانتهاء من يوم شاق، ونجلس على السرير بعد أن طلبت منه أن يغمض عينيه وألا يفتحهما إلا عندما أخبره ثم أخرج من الحجرة. لا أعلم ما الذي حدث بعدها سوى أنني عندما خرجت، وجدت نفسي أسير في نفق شبه مظلم لا نهاية له، سمعت (حازم) يناديني عدة مرات، ولكنى لم أره بل ظهر أبي أمامي فجأة، وصوب

نحوي سلاحه، وهمَّ بإطلاق الرصاص لولا أن تدخلت جدتي التي أبعدت سلاحه عني، وسمحت لي بأن أكمل الطريق. وجدت في رحلتي العديد من الأطفال الجالسين على الأرض مربوطي الأيادي من الخلف، ويقف أمامهم جنود يصوبون الأسلحة ناحيتهم إلى أن قاطعني صوت إطلاق الرصاص على ابن يحتمي بأبيه ثم يتباهى الجندي بقتلهما، ويمنحه القائد وساما. قرأت على الجدران "لا تنتظر من لص يورث لصا سوى الخزي". سمعت صوت مذياع قديم يعلن الحرب، أتساءل أي حرب هذه؟! وفجأة، استدرت خلفي لأجد (حازم) في زي الجندي ومعه سلاح. جريت وراءه أسأله عن وجهته، فقال لي أن الصهاينة يحتلون الأرض المقدسة تحت شعار ديني، ويجب على كل عربي أن يدافع عن الحق المسلوب ثم اختفى.

- "بحبك".
- "أين أنا؟".
- "في جنتي".

- "ألن تذهب إلى الحرب؟".

- "أي حرب؟ نحن لم نخض حرباً منذ أكثر من ثلاثين عاماً".

أصبح حلم العودة يطاردني، ولم أعد أفكر سوى في مفتاح الدار القديم. أصبحت أشعر بملل من علاقتي بحازم، وقررت الابتعاد فجأة موضحة له بأنني في حالة مزاجية سيئة، و أفضل الوحدة هذه الأيام. لم يضايقني وتعامل معي بمنتهى التحضر، وأصبحنا كالأصدقاء الأوفياء، نطمئن على بعضنا. هل أحببته؟ لا أستطيع أن أجزم بحقيقة مشاعري نحوه.

قررت أن أنظف المأساة التي أعيش فيها، وقضيت يومي الإجازة في ترتيب الصالة فقط. وجدت فيها العديد من الأشياء المهمة منها ألبوم صور العائلة، وبعض الأوراق القديمة الخاصة بجدتي التي احتفظت بها عند خروجها من أرضها ثم عقد قرآن أمي و أبي، وبعض صوري و أنا صغيرة، والمفتاح!

أعبر شارع التحرير المكتظ بالسيارات في العاصمة الصاخبة، وأسير باتجاه سينما التحرير بالدقي ليقع بصري على سيدة تنظف سلالم إحدى العمارات الشاهقة الارتفاع وبجوارها طفلتها الصغيرة. تقدمت نحوها ببطء، لأحمل تلك الطفلة الصغيرة التي تقع على الأرض ثم نظرت إلى الأم التي بادلتني بنظرات متسائلة.

عـــــزة

توفي زوجي بعد ثلاثة عشر عاماً من زواجنا، مات بسبب الحاجة والعوزة والإهمال الطبي والمجتمعي له، ستجدين أمثاله كثيرين حولك في وطننا العربي، ولكن في النهاية الحمد لله على ما قدره لي. أسفرت هذه السنوات عن أربعة أبناء وهم من الأكبر إلى الأصغر: يوسف اثنتا عشرة سنة، يحيى عشر سنوات، زكريا ثماني سنوات، مريم ست سنوات. أعانني الله على تربيتهم، فجميعهم كانوا في مراحل التعليم، ولكن الأيدي قصيرة والعين بصيرة لذلك كان إخوتي يساعدونني من حين إلى آخر، فأخي الكبير (شامخ) دائماً ما كان يسأل عني على الرغم من حالته المادية السيئة بينما أخي الذي يليه مباشرة، والذي يصغره بسنتين (كريم) فعلى الرغم من امتلاكه المال إلا أنه قلما ما كان يأتي لزيارتي خوفاً من أن أطلب منه المساعدة، حتى أخي الأصغر (معتمد) هو الآخر مشغول بأحواله ولا

يبالي بغيره. كنت أعذرهم، فلا أمتلك سوى العذر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

تستمر الحياة، وتستمر معها المعاناة في ظل هذا الجحيم الاقتصادي الذي نعيش تحت مظلته إلى أن حدث شيء أغرب من الخيال. في أحد الأيام، سمعتُ طرقاً على باب الشقة، ذهبت لأفتح وكنت متخيلة أنه محصل الكهرباء، ولكني تفاجأت برجل في الأربعين من العمر، قصير القامة، بدين، أصلع من المنتصف بينما على الجانبين شعر طويل و اقف كما أنه غير مهندم، يخبرني بأنه يمتلك نصف هذه الشقة التي أعيش فيها مع أبنائي الصغار، وأخرج لي كتاباً من جيبه -يبدو أنه كتاب مهم من غلافه الذهبي- وأخذ يتحدث معي عن الحقوق الواردة فيه له. لم أفهم شيئاً مما يقوله هذا الرجل، وتجمع الجيران، والكل يستمع إليه في اندهاش وذهول من غرابة اللغة التي كان يتحدث بها. في نهاية الأمر أخبرته بحدة أنني لن

أفتح بيتي له لأنه ليس من المعقول أن أعيش مع رجل غريب تحت سقف واحد ثم أغلقت الباب في وجهه.

أشاد الجيران بهذه الخطوة الجريئة ثم انصرف الجميع ما عدا هذا الرجل الغريب الأطوار، وبعد مرور ساعة سمعتُ طرقاً على الباب ثانيةً، وعندما فتحت وجدت معه سيدة تكبره في السن يقول عنها إنها زوجته، وأتت معه ليتقاسما معي الشقة. وقفت متعجبة لوقاحة هذا الرجل، وفعلت كما فعلت في المرة السابقة ثم بعد مرور ساعة أخرى سمعتُ طرقاً على الباب، وعندما فتحت وجدت الرجل وزوجته وأمين شرطة يخبرني بأحقية هذا الرجل في امتلاك نصف الشقة وفقاً للكتاب الذي معه، وعندما سألت عن هذا الكتاب، أخبرني أمين الشرطة بأنه لا يعرف، ولكن هذه هي الأوامر العليا. لم ينتظر الرجل الغريب وزوجته طويلاً، اقتحما الشقة ثم أخذا يتجولان فيها، دخلا المطبخ، وغرفتي النوم والحمام والصالة، وفي نهاية الأمر قالا لي بأنهم سيتركون لي غرفة نوم وسيأخذون

الغرفة الأخرى بينما المطبخ فهو ملكية عامة على أن أغير أسطوانة الغاز بسبب كثرة عدد أسرتي، فهم اثنان بينما نحن خمسة وبالتالي فاستخدامنا أكثر منهم كما أن تنظيف الحمام فهو علينا لنفس السبب بينما الصالة فهي المكان الحيوي بالشقة حيث بها التليفاز والراديو اللذان هما أساس الترفية في أي مكان، وبالتالي لم تحسم قضية الصالة بعد!

اتصلت بإخوتي لكي ينقذوني من براثن هذا الغريب العجيب، وزوجته التي تشبه الساحرة الشريرة في أفلام الكرتون، وعلى الفور ولأول مرة يحضر الجميع ويجتمعون مع الغريب، وينتهي الأمر بقبول الأمر الواقع، حيث إن الكتاب ينص على هذا! ما هذا الكتاب الذي يجعل هذا الكائن يقتحم حرمة الناس بهذا الشكل؟! ولماذا أتى في هذا التوقيت وليس قبل وفاة زوجي؟! تساءلت بحدة وعصبية، ولكن الرد كان الصمت، الصمت المريب من شامخ وكريم ومعتمد. أخذت أولادي في حضني وأحكمت غلق باب الحجرة، وبكيت عما

اقترفه إخوتي من ذنب في حقي و أنا لاحول لي ولا قوة. وجدت أبنائي يواسونني آلامي وحزني، ووعدني يوسف أن يأخذ حقي ويطرد الأغراب من ملكي.

مر اليوم الأول في حذروريبة من جانب الأغراب، ومن جانبي إلى أن رفض الأولاد المكوث داخل الحجرة طيلة اليوم، وذهبوا إلى الصالة لمشاهدة التليفاز، وهناك حدثت مشادة بين الغريب وزوجته وبين الأولاد انتهت بصفع الغريب لابني يوسف على وجهه. لم يهدأ يحيى وزكريا و انفعلا بشدة عما حدث لأخيهم وعلى الفور قاما برد الضربة إلى الغريب، فقامت زوجته بإطلاق الرصاص على الأولاد الثلاثة وسالت دماؤهم في أرجاء المكان.

أتت الشرطة لمعاينة مكان الحادث، وحضر إخوتي الثلاثة متشحين بالسواد ثم أغُلق المحضر على أنه كان دفاعا شرعيا عن النفس من همجية الأطفال!

انهرت، حقي يضيع أمامي وإخوتي راضخون، لم؟! لماذا يسكت الجميع؟! أخذت مريم في حضني، وأغلقت حجرتي وبكيت، بكيتُ دماء لا دموعا على فراق الحق والأبناء. اقتحمت الحجرة المرأة الغريبة، وأخذت ترمي ملابسي من الشباك وأمرتني بأن أرحل، أرحل ولا أعيش في ملكي، وعندما وقفت في تحدٍ أمامها، مسكتني من يدي لتجبرني على الرحيل، ومريم الصغيرة أخذت تبكي وتصرخ، جرجرتني إلى الصالة لأقف مذهولة من هول المشهد، إخوتي الثلاثة يجلسون مع الغريب ويشربون معه الشاي في ود وصداقة و أنا أهان أمامهم ولم يتحركوا بل ظلوا كالمشاهدين الأغراب.

جلست على الرصيف أصرخ من النكبة التي أعيشها، ومعي مريم تصرخ على ضياع كل شيء إلى أن اقترب مني أحد الجيران، ونصحني أن أتعايش معهم في سلام، فهم خيرون ولديهم أنعام كثيرة، وعلي أن أستفيد كما استفاد إخوتي، سألته وماذا عن أبنائي الذين قتلوا غدراً؟ نظر إلي وصمت.

- "وماذا حدث بعد ذلك؟!".
- "رفعت راية الاستسلام كما ترين".

****

طرقت (عزة) الباب وهي تحمل مريم على كتفها، ليفتح لها صابر ويسمح لها بالدخول. أخبرها بأن عليها أن تنهي تنظيف البيت سريعاً قبل أن يزدحم بالحضور حيث إن اليوم خطوبة أخته، والجميع مشغولون ثم تركها ودخل إلى حجرته وأغلق الباب. وضعت مريم على الكنبة نائمة، وقامت بتشمير أكمامها وبدأت في تنظيف الصالة بينما فتح صابر باب حجرته ببطء شديد، وأخذ ينظر إلى جسدها الذي لم يهدأ، متفاعلاً مع منحنياته الناعمة، ناقماً على الفرصة السانحة التي لا تريد أن تأتي بعد للانقضاض على فريسته.

تشعر (عزة) بسهام صابر المصوبة نحوها، ولكنها لا تبالي بها، فقد اعتادت على هذه النظرات منذ أن تم طردها من بيتها، ولجأت إلى الشارع تحتمي بين أركانه، ولكنه لم يرحمها، فكلابه الضالة أرادت بها سوءاً إلى أن أنقذها عامل المسجد الذي فتح باب بيت الله لكي تبيت فيه مع ابنتها، وبعد ذلك تم طردها منه بحجة التفتيش. ناولها أحدهم بطانية، وراحت لتبيت أمام قسم الشرطة حتى تجد الأمان الذي تفتقده. حاول معها البعض أن يطردها، ولكنها تشبثت بمكانها إلى آخر نفس، ولكن دون جدوى، فلقد أيقنت عزة، أن الضعيف ليس له مكان على الأرض.

حاولت أن تلجأ إلى أي أحد من إخوتها، ولكن أبواب الرحمة قد أغلقت في وجهها. بكت، صرخت، اشتكت لطوب الأرض إلى أن أخذت بيدها سيدة، ووفرت لها حجرة في مقابل مادي زهيد حتى تنجح في توفير المال. مسحت سلالم العمارات، وفي عز الشتاء كان يشترط السكان أن تمسح بالخيشة وليس المساحة كالمعتاد، وعندما

تطرق الأبواب لتحصيل الأموال كان البعض يتهربون بحجة عدم التنظيف جيداً، ولكنها تعود سعيدة ومعها الطعام لابنتها، ودفع إيجار الحجرة بدون تأجيل.

دخلت بيوتا عديدة، منها من تحرش بها، ومنها من اتهمها بالسرقة، ومنها من حاول الاعتداء عليها. لم تيأس طالما استطاعت الدفاع عن نفسها. لم يهمها شيء سوى الاعتناء بابنتها الوحيدة.

مرت أيام، وتفاجأت بزيارة السيدة العجيبة وزوجها ذي الأطوار الغريبة أمامها، خافت، ذعرت، وتساءلت برعب عن الذي يريدانه منها. تقدمت منها السيدة، وطلبت منها أن تأخذ مريم لتربيتها، فهي أولى بها، حيث ستوفر لها الرعاية والتعليم بدلاً من بهدلتها. رفضت (عزة) بكل قوة لديها، وقررت أن تهرب بعيداً. اعتادت (عزة) الهرب من مكان إلى آخر بعد مطاردتها من الشرطة بسبب تسولها، لم تيأس، قررت البدء من جديد حتى توفر لابنتها حياة كريمة. دلها

أحدهم على مكتب تخديم، وهناك استطاعت الحصول على عمل ثم توفير حجرة لها ولابنتها.

دخل صابر الصالة، ولكن لم تنتبه إليه (عزة) التي تتزاحم الذكريات في مخيلتها ثم اقترب منها وطلب أن تنهي سريعاً ما تفعله. التفتت إليه، فوجدت وجهه شديد الاحمرار، والعرق يتصبب منه، فهمت على الفور ما الذي يريده، فهي أصبحت خبيرة بالنفوس المريضة. صوبت نظراتها الثاقبة نحوه لعله يبعد عن ذهنه هذه الفكرة السيئة التي تراوده عن نفسه، ولكن رفض وظل و اقفاً في مكانه، منتظراً إشارة البدء. رفضت عزة، وأخذت ابنتها ورحلت بعد أن ضربها، ولم يعطها المال. لم تبكِ، فقد اعتادت على هذا السلوك المشين، ولكن يكفي لها بأنه لم ينل مراده منها.

****

طرقت (عزة) الباب وهى تحمل مريم على كتفها، ليفتح لها صابر ويسمح لها بالدخول. أخبرها بأن عليها أن تنهي تنظيف البيت سريعاً قبل أن يزدحم بالحضور حيث إن اليوم خطوبة أخته، والجميع مشغولون ثم تركها ودخل إلى حجرته وأغلق الباب. وضعت مريم على الكنبة نائمة، وقامت بتشمير أكمامها وبدأت في تنظيف الصالة بينما فتح صابر باب حجرته ببطء شديد، وأخذ ينظر إلي جسدها الذي لم يهدأ، متفاعلاً مع منحنياته الناعمة، ناقماً على الفرصة السانحة التي لا تريد أن تأتي بعد للانقضاض على فريسته.

استدارت له عزة، وتبادلا النظرات ثم بدأ يقترب منها إلى أن استسلمت بين أحضانه، فقد تعلمت من تجربتها المؤلمة بأن المال هو سيد الموقف، وإذا كان الزبون سيدفع مبلغاً لا بأس به، فلا داعي للشعارات الزائفة التي لا تسمن ولا تغني من جوع. أغمضت عينيها، ورقدت على الأرض، سابحة في ذكريات مختلفة ومتعددة. فها هو

زوجها الذي جاء ليطلب يدها من أبيها، وها هي لحظاتها الأولى بعد الولادة، وفرحتها عندما انتقلت إلى القاهرة لكي تقيم مع زوجها. يقاطعها صراخ ابنتها، فتفتح عيناها سريعاً لتلملم ما تبقى منها، وتأخذ ابنتها في حضنها. يسألها صابر في غضب لماذا تحضر ابنتها معها كل مرة. تخبره بأن لا يوجد لها مكان وتخشى عليها أن تجلس لوحدها في البيت. يأمرها بأن تنهي ما بدأته بسرعة، وبعد أن تنتهي من عملها يعطيها أجرها وعليه الحلاوة.

تأخذ ابنتها على كتفها، وتسير فرحة بالمال الوفير، وتذهب لشراء الطعام الذي تحلم به منذ فترة. تسعد عند رؤيتها ابنتها وهي تأكل بنهم، ولكن لا تستطيع أن يغفل لها جفن، نادمةً على ما فعلته في نفسها، ولكن ما بيدها شيء آخر لتفعله! هكذا كانت تبرر لنفسها أخطاءها.

عادت (عزة) ثانية لشقة صابر، ولكن هذه المرة البيت مزدحم بالأخوات والأم، وأخذ صابر يتطلع لعزة في صمت بين الحين والآخر.

قاطعته أمه التي نصحته بسرعة الزواج، ولا يربط نفسه بمصير أخواته البنات كما تريد أن تسعد بأولاده، وفي النهاية أخذت تدعو له بالزيجة الصالحة والذرية الحسنة. تشير له أخته على جارتهم في العمارة المقابلة، فهي حسنة المظهر وطيبة السمعة كما أنها وحيدة بعدما رحلت أمها منذ فترة. تؤيدها أمها حيث لن يتكلف بشقة ولا أثاث، وأنها وحيدة تحتاج إلى الستر.

تدخل (عزة) الصالة وهي تحمل صينية الشاي وتضعها أمامهم ثم تذهب إلى المطبخ، وتضحك بسخرية على ما سمعته منهم ثم تأخذ ابنتها على كتفها، وتخرج، ولكن يوقفها صابر الذي ينظر لها نظرات ذات أكثر من معنى، ويعطي لها المال. تأخذ (عزة) المال ولا تنظر فيه، ولكنها تنظر إلى صابر بسخرية ثم تفتح الباب لتسير على السلالم باكية.

المصير المحتوم

أقف على كوبري قصر النيل، أنظر إلى انسيابية المياه المتدفقة من أسفل ثم إلى السماء التي تزينها النجوم. أعد كل ما هو أنثوي في هذا الكون لأجده ليس بالشيء الهين الذي يجب على الرجل أن يستهين به. لأول مرة أشعر باحتياجي الشديد إلى حازم، فوجدت نفسي أمام باب شقته ولكني لم أطرقه، هو من فتح ليجدني أمامه، فاندفعت بين أحضانه باكية.

"إننا لن نتفاوض معهم، ولن تكون هناك اتفاقيات، ولا حلول سياسية، فإن الأمر المقدس يتطلب إبادتهم بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة".

أقف على مقربة من الحشود التي تنظر لهذا الرجل الذي يتحدث بكل حماسة بينما تمسكني جدتي من يدي، وتشير إليه لتخبرني أنه من قتل زوجها وأبناءها السبعة أمامها. تلتفت

الحشود لتنظر إلينا في غضب، تصرخ فتاة تماثلني في السن قائلة: "عماليق"، وتشاور علي أنا وجدتي. تجري الحشود في اتجاهنا بعد أن أشهروا سيوفهم، ولأول مرة أرى الخيول ناحيتنا. أجري أنا وجدتي بكل ما أوتينا من قوة، ولا يزال الصراخ يتصاعد ويعلو، والدماء تسيل كالنهر تحت أقدامنا إلى أن وصلنا إلى ربوة عالية والتفتنا إليهم. جثث الأطفال الصغار مبعثرة في كل مكان، والزي العربي معلق على سارية موضوعة على بيت مهدوم بينما آكلو لحوم البشر في كل مكان يلتهمون ما تبقى من معالم تاريخية للمكان. يا الله!

أنظر إلى الطعام الموجود أمامي في الطبق بينما يتأملني (حازم) بنظراته ثم يميل نحوي هامساً بأن الموجودين في المطعم يعتقدون بأنني غريبة الأطوار. أمسك الشوكة والسكينة و أقوم بتقطيع اللحم لشرائح صغيرة و أنا أبتسم بسخرية.

- "ماذا بك؟".

- "لا شيء يا حازم، إنني بخير".
- "أحبك".
- "يقولون أن الكذاب يدخل النار".
- "إذا فأنا كذاب؟! لم؟!".
- "لأنك لم تهتم بي الفترة الماضية".
- "يا إلهى! هكذا هم النساء".

النجوم تنتشر بكثرة في السماء، فأحاول أن أعدها، ولكني في كل مرة أفشل. يدخل (حازم) الشرفة ليطلب مني أن أقوم من على الأرض لأنه لم يقم بتنظيفها بعد. أخبره بأنني لا أهتم بنظافة المكان، كل ما يجول بخاطري في هذه اللحظة هو أن أعرف كم عدد النجوم في السماء. يقفز فجأة لأجده يرقد بجواري يمسك يدي وأخذنا معاً نعد النجوم ثم ينظر نحوي ويخبرني بأنه سوف يترك المكتب عما

قريب لأنه سوف يدير عمله الخاص في مكتبه الجديد، ويطلب مني أن أنضم إليه.

تمتد يد البطل ليمسك البطلة من خصرها، ويرقصان على أنغام التانجو على الرغم من كونه كفيفا إلا أنه بارع في رقصته. يسألني (حازم) عن سر استمتاعي بمشاهدة الأفلام الأمريكية دون غيرها، فأضحك، وأوضح له بأنني أفضل الأفلام العربية الأبيض والأسود عندما كان للفن قيمة وليس إسفافاً وتوريثاً كما يحدث الآن. أنظر مرة أخرى ناحية التليفاز، ولكني لا أنتبه إلى الفيلم بل أتذكر أمي عندما حكت لي عن حلم التمثيل الذي كان يراودها منذ الصغر، ولكن كان من الصعب عليها إيجاد فرصة بسبب... بسبب ماذا؟ هناك العديد من الأسباب التي كنا دائما ما نتحدث عنها، أبرزها عن التوريث وخصوصاً عند قيام ثورة الخامس والعشرين من يناير. كنت اعترض وقتها على تسميتها بالثورة لأنه يشوبها العديد من الشوائب إلا أن أمي كان لديها رأي آخر، وهو أن الجميع

في هذا الوطن ضحايا وأنهت حوارها على هذه الجملة "كلنا ضحايا يا فتاتي".

أسير في أحد الشوارع القريبة من نقابة الصحفيين، يوقفني طفل في السابعة من العمر يطلب مني جنيهاً، أحاول أن أتجنبه، ولكنه يتتبعني لدرجة أنه قد أمسك حقيبتي. توقفت وملت نحوه، وسألته "لماذا تريد الجنيه؟". ينظر إلي الطفل بعيون فيها خوف ورعب ثم يجري بعيداً. أتعجب من رد الفعل الغريب، هل أبدو كهذه المرأة التي تمسك في يدها شعلة من نار، وتأمر الجنود بالهجوم لكي يقتلوا كل ما هو حي على الأرض المقدسة؟!

أرفع بصري لكي استأنف طريقي، ولكنى أصاب بدهشة حيث إن ملامح القاهرة تتغير من حولي، وفجأة أجد نفسي أمام دبابة تصوب مدفعها نحوي بينما الطفل الصغير يتوقف بجواري، ويقذفها بالحجارة. هل أبدو غير مرئية؟ لا أعلم، ولكني أمسك حقيبتي بحرصٍ شديدٍ، وأجري بعيداً لأتفادى طلقات الرصاص

المتساقطة من حولي كمطر الشتاء إلى أن أقف خلف بعض الجنود وهم يصوبون أسلحتهم أمام جدار. أُدقق النظر قليلاً لأجد أباً جالساً على الأرض، وبجوراه طفله الصغير يحاول بيديه أن يحجز الرصاص عنه، ولكن محاولاته البسيطة باءت بالفشل، واخترقت النيران الشريرة جسده الهش!

يمسك يدي الطفل الصغير، ووجهه الآن ينزف من شدة تلقي الصفعات من أحدهم، يأخذني لنجري بعيدا لنقف أمام البحر. أنظر خلفي لأجد بيوتا تنهار من قصف القنابل عليها وأسمع صراخا وعويلا قادما من مكان ليس ببعيد. أمواج البحر ترتطم بقدمي و أنا أستقبلها بفزع على الشاطئ، ثم أجد جدتي تسألني عن سبب قدومي متأخرة هذه المرة؟ وهل أتذكر ما كلفتني به يوماً ما؟ تبدو غاضبةً مني، ولكني أنكّس رأسي في خزي معللة بأن طموحي هزمني في زحمة القاهرة.

يضع الشاب الوسيم الأنيق فنجان القهوة أمامي، ويغادر بسرعة. أمسح وجهي بيدي، ولكن يتساقط منها بعض قطرات الدم التي تزداد كل لحظة، فأقوم مفزوعة من مكاني، وأذهب بسرعة إلى الحمام. أغسل يدي بسرعة، ولكنها تبدو سليمة. تخرج (وفاء) من الحمام لتنظر في المرآة لتجدني أمامها.

- "هل تفضلين القهوة؟".
- "لا وشكراً، علي الرحيل الآن".
- "سعيدة بلقائك في القاهرة يا وفاء".
- "و أنا أيضا".
- "وماذا تفعلين؟".
- "أحاول أن أعود إلى سوريا".
- "ألست خائفة؟".
- "أخطأنا عندما تركنا أرضنا".

أنظر إليها، وأبتسم ثم تتركني لتغادر المقهى في صمت. أتذكر أحد زملائي في الجامعة عندما اتهم الفلسطينيين بأنهم خونة، وباعوا الأرض، وأنهم وحدهم هم من يتحملون المسئولية كلها. بكيت يومها بشدة، وذهبت إلى أمي أشكو لها ما حدث، ولكنها نظرت إلي طويلاً بدون أن تنبس بكلمة ثم قامت ودخلت حجرتها ثم عادت وبيدها قطعة ملابس قديمة ورثة. قالت لي بأنها تعود إلى أبيها الذي قتل على يد الصهاينة وهو يدافع عن الدار العتيقة مع أبنائه ثم رمتها في وجهي، وأمرتني بأن أشمها فلا يزال دماؤه عليها.

- "الأرض.. هل حان وقت العودة؟!".

- "حبيبتي، سيكلفك هذا القرار كثيراً".

أنظر إلى (حازم) ثم أدخل إلى حجرتي وأغلق الباب لأرتمي على السرير، وتتساقط الدموع من عيني دون إرادتي. أرى صورة (صالح) تأتي نحوي من الشباك، ولكنه يتلاشى عندما يدخل (حازم)

الحجرة، ويجلس أمامي متسائلاً عن سبب بكائي، فأنا مصرية، أنتمي إلى هذه البلد كما أن حياتي هنا. أفتح يدي لأريه المفتاح الذي تركته جدتي لي، فيخبرني بأنه قديم، ولم يعد يصلح للاستخدام!

رحل مبارك، واعتقد البعض بأن الوضع أصبح خطيراً، وخصوصاً عندما انقسم الناس إلى أحزاب، وكل حزب يخون ويسب الآخر. لم يكن هناك ثقافة حوار، كل شخص متعصب لوجهة نظره الشخصية، والباقي عبيد وخونة وعملاء أو كنبة، يشاهدون ولا يتخذون ردود أفعال. خرج علينا ذوو الأقنعة المتعددة، تجدهم ينتقلون من قناة إلى أخرى دون كلل أو ملل أو راحة، شاشة التلفاز لا تخلو منهم، وإذا خلت منهم يوماً، أصبحنا نتساءل عنهم كأنهم أصبحوا من ضروريات الحياة التي لا يمكن الاستغناء عنها. الأرض غابت في ظل التخوين والاتهامات، العرض انتهك أثناء الانفلات الأمني. انقلبت الموازين، ورجع عصر الفتوات، واعتقد البعض أن

دخول الاحتلال الإنجليزي البلاد قد اقترب، وبات السؤال هل يا ترى سيظهر عُرابي من جديد؟!

يضحك (حازم) بشدة عندما أخبره بهذه الأفكار، ويتهمني بالجبن لأنني لم أشارك في هذه الأحداث المجيدة، ولكننا نتراهن على نجاحها. يخبرني بأنه لا يمكن قياس نجاح ثورة إلا بعد مرور سنوات، وليس من لحظة ميلادها. أعلم في قرارة نفسي بأنه يستخف بي، ولكنه يداهمني بسؤاله اللاذع الغير متوقع: "من هو صالح؟".

الأمل

تكتظ شوارع وسط البلد بالسيارات، والوقت متأخر، ولا بد أن أعود إلى المنزل خشية من المجهول الذي يسيطر على الحياة. أجري باتجاه التحرير، لأجد المظاهرات التي بسببها يتوقف الطريق. الإحباط يصيبني، ولكني أخطو بخطوات سريعة ناحية كوبري قصر النيل إلى أن أوقفني شاب. نظرت إليه بفزع، الشارع مظلم، وأنا وحدي في الشارع بعيداً عن الناس، فماذا يريد مني الآن؟! بلعت ريقي ببطء، ولكنه ابتسم وطلب مني أن أسمح له بمرافقته حتى الأوبرا كي لا يتعرض لي أحدهم. شكرته، وسرنا معاً بصمت إلى أن وصلنا إلى منتصف كوبري قصر النيل ثم التفت إلي، وأخبرني بأنه يعمل محاسباً في إحدى الشركات القريبة من مكتب المحاماة الذي أعمل به، وأنه يعرفني منذ زمن، ولكنه لم يجرؤ على التحدث معي

من قبل. توقفت، ونظرت إليه، ولم أفتح فمي بحرف كأن هناك سهما اخترق قلبي.

رجعت المنزل ثم جلست أمام التلفاز لأتابع ما يجري، يقاطعني جرس الموبايل لأجد السكرتيرة تبلغني بأن المكتب مغلق حتى تهدأ الأوضاع، ويغادر المتظاهرون الميدان. الوضع يشتعل يوماً بعد يوم مما جعل السكرتيرة تعاود الاتصال من جديد لتخبرني بأننا سوف نستأنف العمل اليوم التالي في المكتب. خرجت من المنزل، وهناك شعور بالخوف يحتويني. ركبت المترو لأجد محطة السادات مغلقة، فاضطرت أن أنزل إلى المحطة التالية لأسير قرابة نصف ساعة على قدمي لأجد في النهاية الشاب أمامي يبدو في حالة مزرية، ويسيطر عليه الإرهاق الشديد كما تفوح منه رائحة البنزين.

- "ألم تذهب إلى عملك؟".
- "لم أذهب".
- "كم معلقة سكر تحب في الشاي؟".

- "واحدة".
- "ما اسمك؟".
- "صالح".

تعودت أن أتناول معه الفطور يومياً كل صباح حتى يوم إجازتي كنت أنزل خصيصاً لأقابله. وطئت قدمي لأول مرة في حياتي الميدان، ولكني لم أشارك في الهتاف. جلست مع بعض الشباب الذين يماثلونني في العمر نتحدث في الأوضاع السياسية التي تمر بها البلاد، وكنت اختلف معهم بشدة، ولكنه كان بين الحين والآخر ينظر إلي وهو يدخن السيجارة ويضحك على كلامي إلى أن سألته عن سبب سخريته بهذا الشكل.

عادت الحياة لطبيعتها، ورجعت إلى الروتين الذي يمتزج بعاطفة جميلة. تقابلنا في أحد المقاهي بشارع شريف باشا، وتناولنا

القهوة وأخذ يقرأ لي الفنجان. تمنيت بأن أعيش معه ما تبقى من عمري، أحببته بدون أن أدري.

****

يأخذني (حازم) بين ذراعيه، ويتساءل إذا كنت أحبه أكثر من صالح، ولكني أنظر إليه، أتأمل عينيه و أتساءل بداخلي إذا كان هو يحبني أم لا. أنغام الموسيقى الهادئة تتداخل مع أفكاري، وأرى نفسي طفلة الثمانية سنوات بفستانها الأبيض ترقص أمامنا، ومعها حسن ذلك الطفل الذي أحبته عندما كانت بالصف الثالث الابتدائي، ورسمت في مخيلتها العديد من الأحلام لولا أنه تم نقله إلى مدرسة أخرى! عاشت على أمل أنها تقابله يوماً ما، وأخذت تنتظر سنوات على طريق المدرسة الابتدائي، ولكن دون جدوى إلى أن أصبحت تتذكر اسمه فقط دون كنيته "حسن".

- "الحساب كله مائة وخمسون جنيهاً".

أفتح حقيبتي، وأخرج المحفظة، ولكني أتفاجأ بأن المبلغ الذي معي غير كافٍ. أقف أمام الكاشير أفكر فيما أفعله ثم أطلب منه إرجاع بعض الأشياء حتى أتمكن من الدفع. أخرج من السوبر ماركت و أنا أفكر في إشهار إفلاسي عما قريب بسبب ارتفاع الأسعار الغير مبرر بهذا الشكل. جبنة ومربى وسمن وكرتونة بيض وبعض علب الكبريت وأشياء أخرى تافه يكون مجموعهم مائة وخمسين جنيهاً. أتمنى و أنا أسير في الشارع أن أجد المصباح السحري ليخرج منه العفريت، وأملى عليه طلباتي!

- "انتظري".

ألتفت ور ائي باتجاه الصوت، وترتسم على ملامحي الدهشة، وتقع من يدي الشنط لترتطم بالأرض، وأصيح "صالح"!

اختفى (صالح) لفترة طويلة بشكل مفاجئ بعد أحداث محمد محمود الثانية، بحثت عنه في كل مكان، ولكن بدون فائدة. فقدت

الأمل، وشعرت بالوحدة تغتصب حياتي بإرادتي. حزنت بشدة على هذا الفراق المفاجئ، وشعرت بأن الجرح الذي خلفه (صالح) بداخلي كاد أن يقتلني.

- "بحثت عنك كثيرا".
- "دعينا ألا نتحدث عن هذا الموضوع أرجوكي".
- "سُجنت؟".
- "هل تزوجت؟".
- "على علاقة بزميلي في المكتب".
- "أتحبينه؟".
- "لا أعلم".
- "يحبك؟".
- "لا أعلم".
- "أحبك".
- "أعلم".

أتُابع بنظراتي (صالح) وهو يغادر الشارع بينما تدمع عيناي حزناً على هذا اللقاء الذي لم أكن أتوقعه. تقترب مني جدتي، وتأخذني من يدي لنصعد معاً إلى الشقة. أبكي في حضنها على السرير، ولكنها تغني لي أغنيتها المفضلة، وتحسس بيدها على شعري ثم أنظر إليها وأشكو لها حظي البائس في هذه الحياة، ولكنها تبتسم محاولة أن تطمئنني. يرن الموبايل برقم حازم، ولكنى لا أرد. يتكرر الاتصال أكثر من مرة، ولكني أغلقه ثم تأخذني جدتي في حضنها لأنام لأول مرة نوماً عميقاً.

تدخل عيوشة الحجرة، وتجلس على حافة السرير بجواري ثم توقظني من نومي لتريني الدماء المتدفقة من بين ركبتها. أقوم بسرعة، وأوقظ جدتي ولكنى أجدها أمي. تشير عيوشة إلى الدماء، فتقوم أمي بسرعة لتجلب لها قطعة قماش وتحاول أن تنظف رجليها، ولكن لا تزال الدماء تتدفق بسرعة شديدة. يميل وجه عيوشة إلى اللون الأزرق بالتدريج إلى أن تسقط جثة هامدة على

الأرض في منتصف الحجرة. أتصل بسرعة على حازم، وأشرح له بهستريا ما حدث، ولكنه يحاول أن يهدئني لكي يفهم ما الذي حدث ثم يقرر في نهاية الأمر أن يحضر. أنظر إلى ساعة الحائط التي تقارب الرابعة عصراً، وأجلس على السرير بجوار أمي ثم يرن جرس الباب، فأجري لأفتح الباب، ولكني أجد (صالح) أمامي متسائلاً إذا كان قد تأخر! أنظر في الموبايل لأتأكد من اتصالي بحازم وليس (صالح) الذي يسارع على إنقاذ عيوشة من الموت. تختفي أمي بالتدريج وتتماهى في الهواء ثم أجري عليه لأخبره بأن عيوشة تستحق نهايتها البائسة فقد فرطت في شرفها. ينظر (صالح) إلي باستغراب، ويخبرني بأني قاسية القلب على الرغم من أني اتبعت نفس طريقها. أبتعد عن صالح، والخوف يتملكني إلى أن تدخل (عزة) ومعها مريم الحجرة، وتخبرني بأن عليها العودة إلى ملكها المنهوب. صوت جدتي يتصاعد بداخلي لتدفعني على الخروج من الشباك، ولكن أين مفتاح الدار؟!

- "كم الساعة الآن؟".

- "الحادية عشرة مساء، لقد نمت كثيراً يا فتاتي".

- "متى جئت يا حازم؟".

- "منذ ساعتين".

أنهض من على السرير في تكاسل شديد لأذهب إلى الحمام ثم أحضر القهوة، ولكني أضعها في الحوض. أشعل السيجارة وأجلس على الأرض في الشرفة أنظر إلى السماء بينما يتسلل حازم، ويجلس بجواري ثم يأخذ السيجارة من يدي ليدخنها.

- "لقد بدأت أول أيامي في مكتبي الخاص".

- "عظيم".

- "ألن تشاركيني العمل فيه؟".

- "للأسف".

- "والسبب؟".

- "سأعود إلى يافا".

يطفئ (حازم) السيجارة بقدمه، ويعيد على مسمعي ما قاله من قبل بأن هذا الأمر سيكلفني الكثير، ولكني أصر على موقفي. أعلم أن العودة إلى الأراضي المحتلة يعتبر جريمة، فهو يمثل تطبيعا مع الاحتلال، ولكنها أرضي في نفس الوقت! ما الذي فزنا به كعرب عندما قاطعنا الذهاب إلى الأراضي المقدسة سوى تخريبها والقضاء على الهوية العربية التي حفرت بين أركانها منذ العديد من القرون؟! دائما ما ينفي الصهاينة وجود كائنات كانت تعيش على الأرض المقدسة عندما هاجروا إليها، واليوم العرب بمقاطعتهم الذهاب إلى هناك يساعدونهم في إثبات حق مزور! يخيرني (حازم) بين مستقبلي المهني والذهاب إلى أرضي، فأختار الأرض فهي الباقية وعلينا الدفاع عنها مما يثير غضبه، ويترك الشقة ويغادر بعد أن وصفني بالغبية.

أضع كل ما أحتاجه في حقيبتي الصغيرة، وأضع المفتاح في المقدمة ثم أمسك جواز سفري لأنفذ ما أمرتني به جدتي. نظرت إلى شباك حجرتي واندفعت أطير في السماء بين السحاب إلى أن عبرت

الحدود، ووقفت حافية القدمين أمام شاطئ يافا العتيقة أتنفس الصعداء بروح طيبة غابت عني منذ سنين طويلة.

اختفت الدار، ولم يعد المفتاح صالحاً للاستخدام، ولكن يكفي بأن الأرض كلها مسجلة باسمي، فأنا الوريثة الشرعية لهذه المدينة بموجب الاسم والعرق. تم استجوابي من قبل أبناء المعتدين أكثر من مرة، وتعرضت للاضطهاد، ولكن يكفيني شرفاً بأن أجوب شوارع المدينة مع جدتي التي تصف لي ملامحها القديمة ككتاب تاريخي مكتوب بمهنية ممتازة.

أجلس مع (عزة) وابنتها مريم على الشاطئ العتيق، وبجواري جدتي المستمتعة بعبق الماضي، نشاهد غروب شمس يوم طويل ضاع في إثبات الهوية والحقوق. تسألني (عزة) عن قراري النهائي ما إن كنت سوف أستقر هنا أم أعود إلى مصر، لا أرد عليها بل أنظر أمامي وفكري مشوش.

أستيقظ في صباح اليوم التالي على اتصال من (حازم) ليخبرني بالعواقب التي سوف أواجهها عقب رجوعي إلى مصر حيث سيتم شطب اسمي من عضوية النقابة، وبذلك قضيت على نفسي بقراري السخيف!

- "هل تعلمين بأن هذا يعتبر تطبيعاً؟".
- "كل ما أعرفه أنها أرضي".
- "موجه إليك تهمة التطبيع مع دولة الاحتلال".
- "دولة؟! بل موجه إلي تهمة التفريط في حقي منذ سنوات".

لقد عشت في مصر ثلاثين عاما وثلاثة أشهر، تقاسمت مع أهلها الحياة والضحك والحزن. قالت لي عرافة ذات مرة بأن الفتيات تغار مني ليس بسبب جمالي، ولكن بسبب حب الشباب لي. نعم، لقد أحبني كثيرون. أتطلع إلى كل ركن في منزلي وأتذكر أيامي التي عشتها فيه. يدخل (حازم) ليعلن لي أسفه على ما حدث، ولكنه

يلومني على ما فعلته. أندفع إليه لأرتمي في حضنه، ولكنه لا يضع يداه حولي بل يبتعد. يخبرني بأن اسمه الآن أصبح مهماً، ويجب أن يحافظ عليه لكي يخطو خطوات سريعة نحو مستقبل مشرف كما أنه يفكر في الترشح في البرلمان. أتمنى له حياة سعيدة، و أتركه يغادر في هدوء.

الحياة أصبحت صعبة من حولي وخصوصاً مع انقطاع مورد الرزق، اختفت جدتي وأمي و أبي عن الظهور. أصبحت أعيش لوحدي ثم علمت بعد فترة زواج (حازم) من ابنة مستشار مشهور.

"لا، لن أنكسر"، هذا ما قلته لنفسي عندما تملكني اليأس لذلك بعت كل ما أملك حتى المنزل عرضته للبيع، وقررت أن أبدأ من جديد، ولكن هذه المرة في أريحا. رتبت أشيائي، وحضرت نفسي للسفر، و انتظرت مشتريا للمنزل غير مكترثة بما يخفيه لي المجهول إلى أن طرق الباب بمشتر جديد، وكانت المفاجأة عندما فتحت الباب.

- "صالح؟".
- "لماذا تعرضين تاريخك للبيع؟".
- :"إنني بحاجة إلى المال".
- "ولماذا لم تلجئي إلي؟!".

أبكي في صمت، ولا أستطيع أن أنظر إليه بل أنظر إلى الأرض في خزي. لم أعد كالسابق يا صالح، فأنا الآن من الأعداء. ولكنه يمسك بيدي ويخبرني بأنه على استعداد أن يبدأ معي الحياة في أي مكان أريده على شرط أن أو افق على الزواج منه. أنظر إليه بتردد وصوت بداخلي يتساءل إذا كنت مستعدة لهذه الخطوة أم لا!

انتهت.

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017